مجلة منتدى التوحيد

اللهم انصر أهلنا في غزة واحفظهم

مجلة دورية شهرية تصدر عن منتدى التوحيد الإسلامي - العدد الثاني - محرم 1430

من مشكاة واحدة

القانون الثاني للديناميكا الحرارية يبطل شبهة الصدفة وأزلية المادة

SECOND LAW OF THERMODYNAMICS

بقلم د. ساهر

حوار موحد وملحد

بقلم أبي الفداء

الأخلاق

الأخلاق ليست مربحة عمليا لدى الماديين

بقلم د. elserdap

الفطرة

فطرة الله التي فطر الناس عليها

بقلم د. حسام الدين حامد

محتويات العدد

مقدمة العدد 3

هدى وذكرى لأولي الألباب 5

القانون الثاني للديناميكا الحرارية
يبطل شبهة الصدفة وأزلية المادة 9

المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام 14

الحرية 20

أحداث غزة وحقيقة الأعداء 28

شارع غير آمن للجميع صفعةٌ ذاتيةٌ في وجهِ منظومةِ التحرير 32

لطائف وطرائف 47

حوار موحد وملحد 48

فطرة الله التي فطر الناس عليها 51

الأخلاق ليست مربحة عمليا لدى الماديين 61

نقض مذهب السفسطة 64

عندما تغيب السنة.....!! 67

Loading 100%

منتدى التوحيد

مجلة منتدى التوحيد
مجلة دورية تصدر كل شهر

تأسست عام
١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

تصدر عن موقع
منتدى التوحيد
www.eltwhed.com

العدد الثاني
محرم ١٤٣٠ هـ

المراجعة اللغوية
مراقب 2
MUSLIMAH
قران الفجر

التصميم
وصية المهدي
أبو عمر الانصاري

المراسلات
altwhed_com@yahoo.com

مُقَدِّمَةُ العَدَدِ

إنَّ من أعظمِ سُبلِ دفعِ الباطلِ أن يبيَّنَ الحقُّ للناسِ كما هو في نصاعتِه وجمالِه، وظهور حججه، وسمو جلاله، ففي أولِ ظهورِه على نعتِه يُقصَمُ ظهرُ الباطلِ ويُدْمَغُ جبينُه، ويصيبُه منه زلزالٌ وأهوالٌ تُرْدِيهِ في مخازِيه، هذا والحقُّ إنما أظهرَ للناظرين حُسْنَه، ولم يعرِضْ للباطل بذكرٍ ولم يحفِلْ به، فكيف إذا سلَّ عليه سيفَ البرهان، وجمعَ له عساكرَ الإيمان ثم قَصَدَه! فحينها لا تبقى له باقيةٌ، إلا نائحةٌ منه على نفسِه، وشاهدةٌ على ضلاله مُذ أمسِه.

وليس من الحقِّ شيءٌ أجْلَى ظهورًا وأبهى حضورًا كالتوحيدِ الذي هو واسِطَةُ عِقْدِ الإيمان، وأساسُ بنيان الإسلام، وعرشُ الحقيقة العظمى، وشمسُ المعارف الكبرى، فكل حقائقِ الوجودِ من حقيقة وُجوده، وكلُّ كمال وفضل من آثار كماله وَجُوده، وكلُّ علمٍ شريفٍ مستمدٌ من علومه، وكلُّ فكرٍ صحيحٍ سائرٌ في ضياءِ نورِه.

وإنَّ من خصائصِ التوحيدِ والإسلامِ أنَّه حقٌ يدُلُّ على نفسِه بنفسِه، وينهضُ بالحجةِ عليه كلُّ دليلٍ وبرهانٍ، فما مِن حقٍّ إلا وهو دالٌّ على حقيقة التوحيد، وناقضٌ باطلَ الشرك والتنديد، ومزهقٌ ضلالةَ أهل الريب والترديد، وما مِن دليل يدل على حق إلا وهو على التوحيد أدلُّ، وهو به أولى وأَخْلَقُ، وما من دليل يُبطل باطلًا إلا وهو على بطلانِ نقيضِ التوحيدِ أظهرُ وأصدقُ، وما مِن شبهةٍ أو شك أو اعتراض يُدفَعُ عن حقٍ إلا كان دفعُه عن التوحيد أجلى وأبين، ولا كان شكٌ أو اعتراض ينقضُ أمرا ويبطلُه إلا كان الشركُ والكفرُ به أبطلَ وأنقضَ.

فإذا تبين هذا عُلِمَ أنَّ إظهارَ الحق عموما وتعليمَ التوحيد خصوصا أولى ما تُعنى به جهودُ المصلحين، وأنَّ تبيينَه للناس أعظمُ فروض الدعوة والتعليم، وأنَّ نقضَ الباطل بمثابة السُوْرِ الذي يحمي حَوزةَ الحق، وعِمارةُ السور لا تكون بإهمال الدُور، إذْ لا يُغْني عن بيانِ الحقِّ شيءٌ، والحقُّ يُغني عن كلِّ شيءٍ، وإذا كان بُطلانُ الباطل يزيدُ الحقَّ وضوحا، فما ذلك لخفاءٍ كان بالحقِّ قبلَ ذلك، وإنما هو زيادةُ نورِه، وعلوُّ شمسِه،

وإنْ كان هناك مِن خفاءٍ عند بعض الناس فما هو مِن الحقِّ وإنما مِن عَشَا الأبصارِ وعَمَى البصائر عند الأغْمَار.

ومن أجلِ هذا كان تبيينُ التوحيدِ من أعظمِ العلوم، وكان إبطالُ ضدِّه من أعظمِ الردِّ على من ضلَّ السبيلَ، ولهذا اقتفَى أهلُ العلم أثرَ الأنبياءِ في دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى في جميع ما يختصُّ به الله جلَّ وعلا، فألفوا في ذلك الكتبَ والرسائل والردود، وعقدوا لذلك المجالسَ والخطب والدروس، وأعلنوا بالدعوة إليه ولم يُجَمْجِمُوا، وأظهروه بالحجةِ والبيان حتى تَقَعْقَعَتْ مفاصِلُ الضلالِ وأبْلَسَ داعِيه، فكان سبيلُهم حقًا متبوعًا، وسنةً حسنةً تُؤثَرُ عنهم، ومَهيَعَ خيرٍ يُنهجُ من ورائِهم.

وإنَّ حاجةَ المؤمنِ المُتبصِّرِ في أمرِ دينِه إلى زادٍ فكريٍّ علميٍّ مُؤصلٍ موافقٍ لما كان عليه السلفُ الصالحُ رضوان الله عليهم، بعيدٍ عن شَغَبِ أهلِ الأهواءِ والبدعِ، يكونُ له زادا في عصرِ الأفكارِ المضطربةِ، ودليلا يُرشِدُه إلى ما عليه أهلُ السنَّةِ والجماعةِ من الحقِّ الصريحِ الذي لم يختلِط بأوْشَابِ البدعِ والمحدثاتِ في المُعتَقدِ والعملِ، إنَّ حاجتَه لذلك لمِنْ أعظمِ الحاجاتِ وأهمِّ المُهمات لطالبِ الرُشدِ، وباغِي الخَيرِ.

وفي ذلك كان سعيُنا في هذه المجلةِ لبيانِ التوحيدِ ومحاسنِ الإسلام وجمالِ الشريعة، ودفعِ شُبَهِ الخصومِ وتفنيدِ باطلِهم، وكشفِ ضَلالةِ رأيهم، وتبيينِ المآخذِ عليهم، وتوضيحِ ما ذهبتْ إليه كلُّ طائفةٍ من مدَّعي الفكرِ والنظرِ، ممن ارتدى لَبُوسَ الفِكْرِ وهو من الفكرِ الصحيحِ بَرَاءٌ، وما بُلِيَتْ به طوائِفُهم من مناقضَةِ الفِطرةِ والعقلِ، وما مُنِيتْ به من مخالفةِ السبيلِ القويمِ، والهُدَى المستنيرِ.

فنسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يجعلَ ذلك في سبيله، خالصا لوجهِه، غيرَ مصروفٍ شيئا منه لغيره، ولا مَبغيًا به أحدًا سواه، وأنْ ينفعَ به عبادَه، ويهديَهم به إلى مرَاشِدِ الأمورِ، ويُجنِّبَهم المعاثِرَ والمَزَالَّ، واللهُ خيرٌ حافظًا وهو أرحمُ الرَّاحمين.

إدارة المنتدى

هُدًى وذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ

بقلم د. حسام الدين حامد

لا تزال الذكرى تختلج في نفسه ..

حين ترك عقله يوم اعتناقه مِلَّتَه الباطلة!! إذ كان ذلك لازمًا للسكوت عما سيقابله من محالات!! فكيف يقبل نسبة أفعالٍ يستحي البشر من إتيانها إلى «إلهه» الذي يعبده؟! وقد أخبروه بضرورة الإيمان بهذه النسبة وإن «توهَّمَ» في ظاهرها انتقاصًا «للإله»!! هكذا أخبروه وهكذا سكت طالبًا «الخلاص» المزعوم!! وحين سألهم عن النصوص وما فيها من قبيح اللفظ ووضيع المعنى، أجابوه بأن لهذه النصوص باطنًا، وهذا الباطن لا يُعلَم إلا من طريقهم!! فإن استغرب الطقوس التي ألزموه بها كالاعتراف للبشر بذنبه، وأكل لحم الإله وشرب دمه؛ حزّ هذا الاستغراب في نفسه إذ هو – كما حدثوه – علامةٌ على نقصان إيمانه!!

حتى أتى عليه حينٌ عزَّ عليه أن يُلغِيَ عقلَه وهو الرجل الرشيد!! واعتمل الأمر في نفسه وتأجج الصراع شديدًا حتى انكسر الصنم!! وقرر أن يخلِّص نفسه من تلابيب هذه الملة الباطلة!! ثم بحثَ مُخلِصًا حتى وجد الخلاص الحقيقي في الدين الحق؛ فحدَّثنا – سعيدًا - أنه وجد عقائد الإسلام ﴿ **مما يسع الأميّ تعقّلها، ليسعه الدخول تحت حكمها** ﴾ فهي ﴿ **من القرب للفهم، والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان منهم ثاقب الفكر أو بليدًا** ﴾[١]،

وبعد هذا الاشتراك في الأصل يتميز الناس، ﴿ **فليس من له مزيدٌ في فهم الشريعة كمَن لا مزيد له، لكن الجميعَ جارٍ على أمرٍ مشترك** ﴾[٢]، فهي شريعةٌ مهما سبرتَ غورها وجدتَ أنها ليس فيها ما ﴿ **يخالف القياس، ولا في المنقول عن الصحابة الذي لا يعلم لهم فيه مخالف، وأن القياس الصحيح دائرٌ مع أوامرها ونواهيها وجودًا وعدمًا، كما أن المعقول الصحيح دائرٌ مع أخبارها وجودًا وعدمًا، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح المعقول، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل** ﴾[٣].

وفي الوقت الذي وجد فيه الملل الباطلة تجد "خلاصها" في إلغاء الإنسان عقله، ويسعى سدنتها وأحبارها إلى خديعة الأتباع عن عقولهم، فقد وجد الإسلام على العكس من ذلك، فإنّ **اشتراط العقل في التكليف لا خلاف فيه بين العلماء، إذ لا معنى لتكليف من لا يفهم الخطاب**[٤]، و**من أجل ذلك وحفاظًا على هذا العقل، وحتى لا ينحرف، وحتى لا يضل، وحتى يبقى قائمًا بوظيفته التي خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها : حرّم الله كل ما يضر بهذا العقل، وكل ما يعطل فاعلية هذا العقل، فحرّم الله المُسكِرات والمخدِّرات وكلَّ مادةٍ يُدخلها الإنسان في جوفه – مطعومًا كانت أو مشروبًا – حرمها الله إذا كانت تخامر العقل وتضر به**[٥].

ولذلك نرى في كتاب الله تعالى البراهين العقلية التي لا يماري أحدٌ في صحتها، مع عرض ذلك بأسلوبٍ بليغٍ يسيرٍ لا يستطيع أحدٌ معارضته، فأقام سبحانه برهانًا على افتقار العالمين لربهم بقوله:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[٦]

وأقام عز وجل برهانًا على وحدانيته بقوله:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾[٧]

وقوله:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٨]

وأقام تعالى برهانًا على صدق نبوة الرسول ﷺ بقوله:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٩]

وقال سبحانه:

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[١٠]

والأمر أكبر من استقصائه هاهنا..

ومن تمام عرض البراهين العقلية أن تُزال الموانع أمام قبولها، فنجد في آياتٍ كثيرةٍ من كتاب الله تعالى مذمة من لا يعقلون، فيحثهم –تعالى- على السير في الأرض والنظر في الآيات بقوله:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١١]

ويبين تعالى الدرك الأسفل الذي يصل إليه من يلغي عقله بقوله:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[١٢]

ويقول تعالى فيمن كابر في اتباع ما عرفه:

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٣]

وغير ذلك كثيرٌ في كتاب الله تعالى..

قال شيخ الإسلام رحمه الله: **العقل شرطٌ في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنّه ليس مستقلًا بذلك، لكنه غريزةٌ في النفس، وقوةٌ فيها، بمنزلة قوة البصر**

التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار. وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عُزل بالكلية : كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية، قد يكون فيها محبةٌ ووجدٌ وذوقٌ، كما قد يحصل للبهيمة. فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأتِ بما يُعلم بالعقل امتناعه [١٤].

فنعمَ ذلك قولًا ! وما أقبح شبهةً تُثار !! يسعى من يثيرها - بخبثٍ أو حمقٍ - إلى التسوية بين ما أتى في الإسلام من أمورٍ يعجز العقل عن تصورها لطبيعةٍ في العقل ذاته، و أمورٍ أتت في الملل الباطلة يأبى العقل تصورها لكون هذه الأمور محالةً في نفسها، وشتان بين الأمرين!!

فإن **الشرع يأتي بمحارات العقول، وهو لا يأتي أبدًا بمحالات العقول** [١٥]، فمحالات العقول باطلةٌ في نفسها، لا يمكن قبولها، كالجمع بين النقيضين، والقول بأن الثلاثة يكونون واحدًا من جنسهم نفسِه، والقول بتسلسل العلل، والقول بالدور القبلي، والقول بحوادث لا سبب لها، وغيرها من أمورٍ محالةٍ يعتقدها أهل الإلحاد والضلال والزيغ، أما محارات العقول فهي أمورٌ ليست من المحال في شيء، ولكنها **أمورٌ غيبيةٌ لا يدركها العقل، ولا مجال له فيها، وإنما الواجب فيها الانقياد للشرع، وتصديقه فيما أخبر به من غيبيات** [١٦]، والقول بحدود يقف عندها العقل هو من مقتضى العقل الصحيح، فما لا يدركه عقل الإنسان وتصوره **إدراكَ ماهيةٍ وحقيقة، أو إدراك عليةٍ أو كيفية، لا يتعذر عليه التسليم به في طمأنينة، لأنه داخلٌ في مفهوم منطقه المعقول، منطقه الذي يسلم بالحقيقة البسيطة : حقيقة أن المجال الذي يتناوله هذا التصور أكبر وأوسع من الكينونة الإنسانية بجملتها** [١٧].

فالتصور له حدودٌ يقف عندها، فلا عملَ له في محارات العقول، فالعقل شهد **للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين، فإلى هاهنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه** [١٨].

فهيهات هيهات أن تكون منزلة العقل في الإسلام كمنزلته في الملل الباطلة، فالإسلام أتى بما قرُب من الفهم وسهُل على العقل، مع اعتبار تفاوت الناس في الذكاء والبحث، ولم تأتِ الشريعة إلا بما يوافق العقل الصحيح وما أتت أبدًا بمحالات العقول، بل أتت ببراهينَ وأدلةٍ عقليةٍ يسلم العقل لها تسليمًا، وأتت بتحريم كل ما يخامر العقل ويضره، إذ العقل في ديننا مناط التكليف، والعقل يُسلِّم بأن له حدودًا لا يتمكن من الخوض فيما وراءها، وليس له حينها إلا توفير جهده عن التبديد فيما ليس من شأنه، وهكذا فإنه :

«ما من دينٍ احتفل بالإدراك البشري وإيقاظه، وتقويم منهجه في النظر واستجاشته للعمل، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وتحريره من قيود الكهانة والأسرار المحظورة، وصيانته في الوقت ذاته من التبديد في غير مجاله، ومن الخبط في التيه بلا دليل .. ما من دينٍ فعل ذلك كما فعله الإسلام .. وما من دينٍ وجّه النظر إلى سنن الله في الأنفس والآفاق، وإلى طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان، وإلى طاقاته المذخورة وخصائصه الإيجابية، وإلى سنن الله في الحياة البشرية معروضةً في سجل التاريخ .. ما من دينٍ وسّع على الإدراك في هذا كله كما وسّع الإسلام»[١٩].

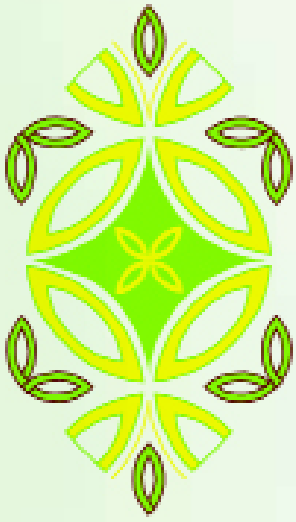

هوامش المقال :

[١] الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، (٢ /٧٤).

[٢] السابق (٢/ ٧٧).

[٣] إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، (٣/ ٢٧٣).

[٤] مذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي، ص ٣٦.

[٥] العقل ومنزلته في الإسلام، محمد موسى آل نصر، ص ١٦.

[٦] سورة الطور : ٣٥ – ٣٦.

[٧] سورة الإسراء : ٤٢.

[٨] سورة الأنبياء : ٢٢.

[٩] سورة البقرة : ٢٣.

[١٠] سورة النساء : ٨٢.

[١١] سورة الحج : ٤٦.

[١٢] سورة الأنفال : ٢٢.

[١٣] سورة النمل : ١٤.

[١٤] مجموع الفتاوى، (٣/ ٣٣٩).

[١٥] أسئلة وأجوبة حول السلفية، د. علاء بكر، ص ٥٣.

[١٦] السابق، ص ٥٥.

[١٧] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص ٤٨ مختصرًا.

[١٨] المنقذ من الضلال، منسوب لأبي حامد الغزالي، ص ٤٠.

[١٩] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص ٥٢.

من مشكاة واحدة

-٥٨-

القانون الثاني للديناميكا الحرارية يبطل شبهة الصوفة وأزلية المادة

SECOND LAW OF THERMODYNAMICS

بقلم د. ساهر

لعلك إذا ما حاورت أحدًا من الملاحدةِ على اختلافِ أقنعتِهم اللادينيةِ أو اللاأدريةِ لوجدتَه يُفسرُ وجودَ هذا الكونِ بأنَّه محضُ «صُدفة»! أي أنه ينكرُ وجودَ خالقٍ لهذا الكون. ولعلك إن تعمقتَ معه في النقاش أدركتَ أن الملحدَ مهما تقنَّعَ باللادينيةِ أو اللاأدريةِ لا يعي أن خلفَ تلك الكلمةِ -الصدفة- علمٌ حِسابيٌّ وعلومٌ فيزيائيةٌ بُني عليها الكثيرُ من التطبيقاتِ الهندسيةِ والحساباتِ الفلكيةِ والتصميماتِ التكنولوجية! وعليه فإن الصدفةَ ليست أمراً عشوائيًا غيرَ محسوبٍ رياضيًا، وإلا لانفجرت كلُّ المَركباتِ الفضائيةِ فوق سماءِ وكالةِ ناسا! ولاحترقت مصافي البترولِ في مُبَخِراتِها! ولما استطاع المهندسونَ التحكمَ بالتفاعلاتِ الإشعاعيةِ النشطةِ على مدارِ عشراتِ السنوات!

والغريبُ في الملحدِ أنه يتبجحُ في الدفاع عن فكرةِ «الصُدفة» وكيفيتِها تبجحًا عجيبًا! بينما يقفُ علماءُ الفيزياءِ بتواضعٍ معترفين أنهمُ استطاعوا أن يُفسروا آليةَ عملِ بعضِ الظواهرِ الكونيةِ أو الفلكيةِ ولكنهم أقَروا بعجزهم عن تفسيرِ سببيةِ حدوثِ هذه الظواهرِ أو الغرضِ من حدوثِها ووجودِها! ولم يتجرأْ أحدٌ منهم أن يُعلِّقَ عجزَهم هذا على محضِ «صدفةٍ» عمياءَ أو ذاتيةِ الحدوث.

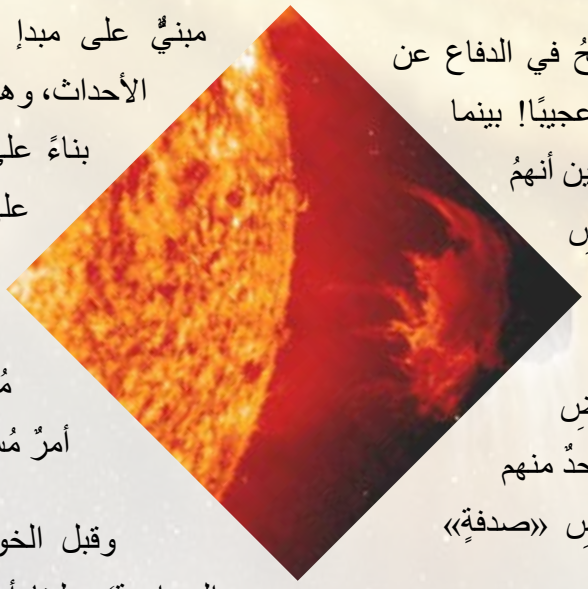

فلو سألْنا الملحدَ: كيف وُجد الكونُ صدفةً؟ لكان جوابُه ضِمنيًا أو صريحًا أن الوجودَ يقابلُه عدمُ الوجودِ وهذا يساوي في الاحتمالاتِ ما نسبتُه ٥٠٪ وجود إلى ٥٠٪ عدمُ وجود!! وهذا فِعليًا هو الهراء بعينه! فلو طبَّقنا مبدأَ الاحتمالاتِ على الكونِ ووجودِه، فعلينا حينَها أن نأخذَ بعين الاعتبارِ عدةَ عواملَ تحددُ إمكانيةَ حدوثِ أو عدمِ حدوثِ هذه الصدفة. فعلماءُ الفيزياءِ أقروا بوجودِ أكثرَ من 10^{80} (عشرة للقوى ثمانون) جُسيمٍ في الكونِ، والعمرُ الزمنيُّ للكونِ يُقدَّرُ بثلاثينَ مليارَ عام. فلو فرضنا أن كلَّ جُسيمٍ سيشاركُ بأحداثٍ وظواهرَ كونيةٍ بما مقدارهُ ألف مليار (10^{12}) حدثٍ مُستقلٍّ، وهذا أقلُّ ما يمكنُ فعليًا، فسيكونُ مقدارُ المحاولاتِ والأحداثِ الكليةِ لكل الجسيماتِ في هذا الكونِ 10^{1010} (عشرة للقوى مائة وعشرة) حدث. وعليه فإن الصدفةَ بوصفها حدثا -وإن كانت واردةً نظريًا- فإن احتماليةَ حدوثِها هو واحدٌ إلى 10^{1010} (عشرة للقوى مائة وعشرة) حدث! وهذا في علمِ الرياضياتِ احتمالٌ غيرُ قابلٍ للحدوثِ على الإطلاق, وإن حصل وحدَثت مثلُ تلك الصدفةِ فإنها حينئذٍ لن تكونَ تلقائيةً أو ذاتيةَ الحدوثِ بل لا بُد أن يكونَ هناك مُحدِث وهذا يُلغي عنها صفةَ الصُدفة.

مما سبق يتبينُ أن الصدفةَ مصطلحٌ رياضيٌّ حسابيٌّ مبنيٌّ على مبدإ الاحتمالاتِ والعشوائيةِ في توالي الأحداث، وهي فعلٌ أو حَدثٌ إمكانيةُ حدوثِه واردةٌ بناءً على حساباتٍ رياضيةٍ إلا أنها مُعتمِدةٌ على عدةِ عواملَ تُحددُ مدى قوة احتمال إمكانيةِ الحدوث أو عدمها، وحيث أنها حدثٌ فلا بُد لها أيضًا من مُحدِث لأن لكل حادثٍ سببٌ، وهذا أمرٌ مُسلَّمٌ به علميًا.

وقبل الخوضِ في (القانونِ الثاني للديناميكا الحراريةِ) علينا أن نتذكرَ أولاً أنه عند الحديثِ عن الديناميكا الحراريةِ يجب أن نحددَ ما يُسمى بـ «النظام» (System) وما يُسمى بـ «المحيط» (Surrounding)، وبدون تحديدِ نوعِ النظامِ فإن كلَّ الاستنتاجاتِ تكونُ مبنيةً على خطأ!

وهناك ثلاثةُ أنظمة في علمِ الديناميكا الحراريةِ :

- **نظامٌ مفتوح (Open System)**

وهو نظامٌ يسمحُ بتبادلِ الطاقةِ والمادةِ من خلال حدودِ محيطِه.

مثاله: الأرضُ (نظام)، وغلافُ الأرضِ (حدود)، والكونُ الخارجيُّ (محيط)، بحيث تَستمدُّ الأرضُ طاقتَها من الشمسِ وتستطيعُ بعضُ الشهبِ (مادة) أن تخترقَ غلافَ الأرض.

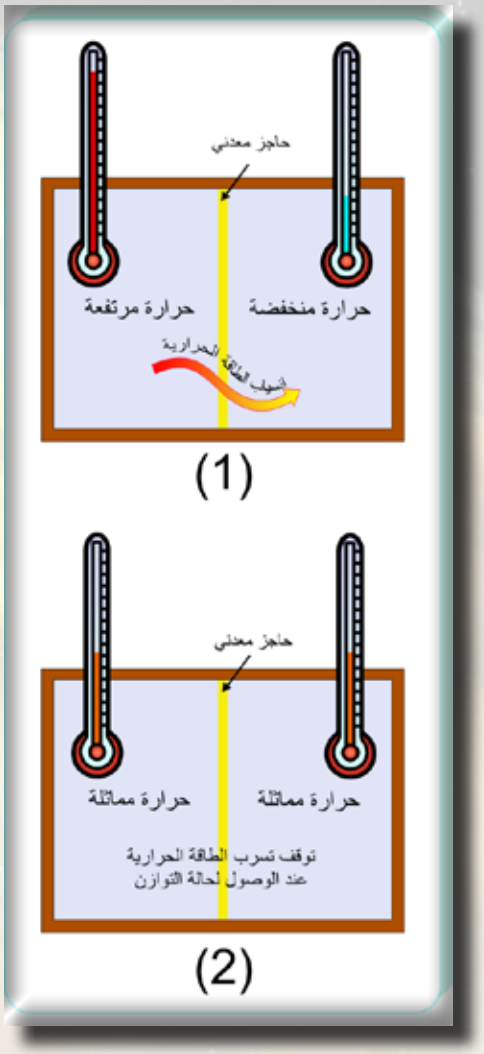

رسم توضيحي مبسط للقانون الثاني للديناميكا الحرارية

- **نظامٌ مغلقٌ (Closed System)**

وهو نظامٌ يسمحُ بتبادلِ الطاقةِ ولا يسمحُ بتبادلِ المادةِ من خلالِ حدودِ محيطِه.

مثاله: الكونُ (Universe) الذي هو موضوع هذا المقالة، وسيأتي الكلام عليه.

- **نظامٌ معزولٌ (Isolated System)**

وهو نظامٌ لا يسمحُ بتبادلِ الطاقةِ والمادةِ من خلال حدودِ محيطِه.

لقد اعتُبِرَ الكونُ نظامًا مغلقًا؛ وذلك اتفاقًا مع مُعطياتِ نظريةِ الانفجارِ العظيمِ التي تنصُّ على أن الكونَ قد بدأ بعشوائيةٍ (فوضى) قليلةٍ جدًّا وبطاقةٍ عاليةٍ جدًّا، ومع الزمنِ أصبحت العشوائيةُ تزدادُ، وستستمرُّ بالازديادِ حتى تقلَّ الطاقةُ المتاحةُ إلى درجةٍ تكون فيها نهايةُ هذا الكون. وهذه الظروفُ لا تحدثُ إلا في نظامٍ مغلقٍ كما هو متفقٌ عليه في علمِ الديناميكا الحراريةِ، وفي النظامِ المغلقِ لا يمكنُ أن تكون الانتروبيا (العشوائية) صفرًا أو أن تتناقصَ، وإنما هي في تزايدٍ مستمرٍّ وفوضىً متزايدة.

وعليه فإن (القانونَ الثاني للديناميكا الحراريةِ) ينصُّ على أنه في حال وجودِ نظامٍ مغلقٍ (كالكونِ مثلا) فإن العملياتِ والأنشطةِ في هذا النظامِ ستتجهُ وتؤولُ إلى حالةٍ تخسرُ من طاقتِها المتوفرةِ (Available Energy) وتصبحُ طاقتُها غيرَ متوفرةٍ (Unavailable Energy) مما يزيدُ من عشوائيتِها (Entropy).

والعشوائيةُ تُعَرَّفُ بأنها درجةُ الفوضى الموجودةُ في جسمٍ ما أو في نظامٍ ما، فجزيئاتُ الغازِ المحصورةُ في اسطوانةٍ ما مثلاً تتحركُ وتتصادمُ بعشوائيةٍ عاليةٍ داخلَ الاسطوانة.

وكما هو معروفٌ فإن الطاقةَ تنتقلُ من نظامٍ عالي الطاقةِ (كالجسمِ الحارِّ مثلاً) إلى نظامٍ قليلِ الطاقة (كالجسمِ البارد مثلا)، أي أن النظامَ يتحولُ من نظامٍ مُنظَّمٍ عالي الطاقةِ إلى نظامٍ عشوائيٍّ قليلِ الطاقةِ، وسيستمرُّ انتقالُ الطاقةِ إلى أن تتساوى طاقةُ النظامين، وهذا ما يُسمى بـ «الاتزانِ الديناميكي» (Thermodynamic Equilibrium)، عندها يكونُ النظامانِ في حالةٍ تسمى (Dead Heat System) وتكونُ العشوائيةُ (Entropy) في هذا النظامِ -المتساوي حراريًا- عاليةً جدًّا، ويرافقُ

انتقالَ الطاقةِ عادةً تحولُّها من طاقةٍ متوفرةٍ إلى طاقةٍ غيرِ متوفرةٍ وأخرى ضائعةً لا يمكنُ استرجاعُها كاملة، وهذا يقودُنا إلى الاستنتاجِ بأن: الطاقةَ (Energy) في تناسبٍ عكسيٍّ مع ما يُسمى بالعشوائية (Entropy).

ويتضحُ مفهومُ هذا القانونِ من خلالِ المثالِ التالي:

يسيرُ القطارُ البخاري عن طريقِ حرقِ الفحمِ لتحويلِ الطاقةِ الكامنةِ (المتوفرةِ) في الفحمِ إلى طاقةٍ حراريةٍ، ثم إلى ميكانيكيةٍ، ومن ثَمَّ تُستغلُّ الطاقةُ الميكانيكيةُ لتسييرِ القطارِ، وتُصرَفُ هذه الطاقةُ في سيرِ القطارِ، واحتكاكِ عجلاتِ القطارِ الحديديةِ مع سكةِ الحديدِ، والمكابحِ عند توَقُّفِ القطار. وكلُ أشكالِ هذه الطاقةِ تصبحُ غيرَ متوفرةٍ فيما بعدُ، بحيث لا يمكنُ استرجاعُها وتحويلُها إلى مَنشَئِها الأصليِّ حين كانت طاقةً كامنةً في الفحم (أي أن العمليةَ غيرُ عكسيةٍ) (Irreversible Process).

وأمَّا مثال انتقالُ الطاقةِ من الجسمِ الحارِّ إلى الباردِ: فهَبْ أن لدينا فنجانَ قهوةٍ ساخنًا وُضِعَ في غرفةٍ عاديةِ الحرارة، فإننا سنلاحظُ عادةً أن حرارةَ الفنجانِ تتناقصُ إلى أن تصلَ إلى حرارةِ الغرفةِ وبعدَها ستصلُ إلى حرارةٍ متساويةٍ بحيث يتوقفُ عندَها انتقالُ الطاقة. وهذا فعليًا ما تنصُّ عليه نظريةُ الانفجارِ العظيم، حيث سيستمرُ انتقالُ الحرارةِ من الشمسِ إلى الأرضِ وغيرِها إلى أن يَنفَدَ الوقودُ الهيدروجينيُّ في الشمسِ، وعندَها سيتوقفُ انتقالُ الطاقةِ ويحدثُ اختلالٌ في توازنِ قوى النظامِ الشمسيِّ، وعندَها تزدادُ العشوائيةُ إلى حدٍّ تنجذبُ فيه كلُّ الكواكبِ إلى الشمسِ وتكونُ عندها نهايةُ الكون حسب النظرية.

والآن سنستعرضُ ادعاءاتِ الملاحدةِ والردَّ عليها وفق ما تقدم ذكره من الكلام في (القانون الثاني للديناميكا الحرارية)، وسنبين مناقضة كل دعوى منها للحقائق المثبتة والمستلزمة من مقررات هذا القانون، ومن تلك الادعاءات قولهم أنه:

(لا خالقٌ! والكونُ محضُ صدفة)

إننا نجد في هذه الدعوى تناقضًا وتعارضًا واضحا مع معطياتِ القانونِ الثاني للديناميكا الحرارية. فإن القولَ بأنه «لا خالق» فيه إقرارٌ بأن الكونَ قد وُجدَ أو أوجدَ نفسَه من العدمِ، أو أنه قديمٌ لدرجةِ الأزل. ونحن نعرفُ أن الطاقةَ والمادةَ صورتانِ لعملةٍ واحدةٍ، والحقيقةُ العلميةُ تقرر أنَّ إيجادَ هذا الكونِ قد رافقَه حدوثُ طاقةٍ هائلةٍ جدًا، وهذه الطاقة نلمسُها إلى يومِنا هذا إما في الشمسِ أو في أعماقِ الأرض، مما يؤكدُ أنَّ هذه (الطاقةَ) كانت في الأصلِ (مادةً)، وهذا ينفي ادعاءَ الملاحدةِ فكرةَ إيجادِ الكونِ لنفسِه من (العدم).

أما أن الكونَ قد جاء محضَ صدفةٍ، فكما تبينَ لنا آنفًا أن الصدفةَ نتاجٌ عن أحداثٍ محتمَلةِ الحدوثِ، وحيثُ أن العشوائيةَ مبنيةٌ على مبدإ ازديادِ كثافةِ الاحتمالاتِ، كما بيَّنها عالمُ الفيزياءِ المشهورُ (Boltzman)، فلا بُدَّ للصدفةِ أن تَحدُث في وضعٍ تكونُ فيه العشوائيةُ عاليةً جدًا والطاقةُ قليلةً جدًا، وهذا ما يتناقضُ مع الحقيقةِ العلميةِ التي تؤكدُ أنَّ وجودَ الكونِ قد صاحبَه طاقةٌ هائلةٌ جدًا وعشوائيةٌ قليلةٌ جدًا. ومما سبق نستنتجُ أنَّ احتمالية حدوثَ مثلَ تلك الصدفةِ في بدايةِ وجودِ الكونِ قليلةٌ جدًا جدًا، وأشبهُ ما تكونُ معدومةً بالمقارنةِ مع حجمِ الطاقةِ الذي رافقَ خلقَ الكون أو إيجادَه.

(الكونُ ذاتيُّ الخلقِ ومتوالي الوجود)

يدَّعي بعضُ الملاحدةِ أن الكونَ يستطيعُ ذاتيًا إعادةَ خلقِ نفسِه بنفسِه ولعدةِ مراتٍ متكررة، وهذا فعليًا يتناقضُ مع القانونِ الثاني للديناميكا الحراريةِ، فكما تبينَ سابقًا أن الكونَ عند بدايةِ وجودِه يرافقُه طاقةٌ هائلةٌ، فإنَّ هذه

الطاقةُ المتوفرةُ تبدأُ بالتحولِ والانتقالِ إلى طاقاتٍ غيرِ متوفرةٍ في هذا النظامِ الكونيِّ المغلقِ، وهذه الطاقاتُ الغيرُ المتوفرةِ لا يمكن استعادتُها مرةً أخرى لأن العمليةَ غيرُ عكسية (Irreversible System)، ومن ثَمَّ ينتهي هذا الكونُ كما تنصُّ عليه نظريةُ الانفجارِ العظيم. ولكي يستطيعَ الكونُ خلْقَ نفسِه بنفسِه من جديدٍ فإنَّ عليه جمعَ كل الطاقةِ الضائعةِ الغيرِ المتوفرةِ؛ كي يحصلَ على كونٍ جديدٍ مماثلٍ للكونِ المنصرمِ، وهذا مستحيلٌ؛ لأن العمليةَ غيرُ عكسيةٍ، ولاحتماليّةِ ضياعِ الطاقةِ من النظامِ المغلقِ الذي يسمحُ للطاقةِ بالنفاذِ من خلالِه ولا يسمحُ للمادة بذلك.

(الكونُ أزليُّ الوجود)

هذا الادعاءُ يتعارضُ مع مُعطياتِ وأساسياتِ القانونِ الثاني للديناميكا الحرارية، فادعاءُهم أزليةَ الكونِ ينفي أن للكون بدايةً، ولو سلَّمنا -تنزُّلًا- بصحةَ ادعاءِ الملاحدةِ أن الكونَ أزليُّ الوجودِ! فيجبُ -اتفاقًا مع أساسياتِ القانونِ الثاني للديناميكا الحراريةِ- أن تكونَ كلُّ الطاقاتِ المتاحةِ والمتوفرةِ في الكونِ قد ذهبت الآن، وأن الكونَ يعيشُ في حالةِ طاقاتٍ غيرِ متوفرةٍ أوصلتْنا إلى اتزانٍ (أي أن الكونَ الآن في وضعٍ حراريٍّ ميتٍ Dead Heat System)! وأنَّ كلَّ الأجسامِ الموجودةِ في هذا الكونِ متساويةٌ في الحرارةِ والطاقة، وهذا يتنافى مع الواقعِ الحاليِّ للكونِ، لأن الطاقةَ ما زالت متاحةً ومتوفرةً وتنتقلُ من مكانٍ إلى آخرَ حسبَ الفَرقِ في درجاتِ حرارةِ الأجسام، وهذا ما يتناقضُ مع فكرةِ أزليةِ وقِدَمِ الكونِ، حيثُ أنَّ القانونَ الثاني يلزمُ منه وجودُ بدايةٍ للكون.

أما النقطةُ الثانيةُ التي تنفي أزليةَ الكونِ، فهي أنَّ الكونَ لو كان أزليًا لكان حجمُه لا نهائي (Infinite size universe)، لأننا نعرفُ أن الكونَ في توسُّعٍ مستمر. ولكنَّ علمَ الفلكِ قدَّم لنا نظرياتٍ وحساباتٍ فلكيةٍ تُثبتُ نظريًا محدوديةَ حجمِ الكونِ والمجراتِ الكونيةِ، مما يعني أنَّ حجمَ الكونِ يمكنُ نظريًا تَصورُّ حدودِه وتحديدُها، مما يَنفي فكرةَ وجودِ حجمٍ لا نهائيٍّ للكونِ، وعليه يُدحَضُ الادعاءُ بأن الكونَ أزلي.

أما النقطةُ الثالثةُ التي تدحَضُ ادعاءَهم هذا، فهي ما نراهُ في النجومِ من توالدٍ جديدٍ لعددٍ كبيرٍ منها، وانتهاءِ وميضِ نجومٍ أخرى، مما يَدلُّ على أن النجمَ له بدايةٌ وله نهايةٌ، وعليه فلا أزليةَ يمكن أن توجدَ في هذا الكونِ. وحيث أن الشمسَ هي أكبرُ النجومِ حجمًا في النظامِ الشمسيِّ، ولأن الشمسَ تضيءُ بسببِ الاحتراقِ الهيدروجينيِّ في داخلِها، وتلك الطاقةُ هي التي تُبقي كلَّ الأجرامِ السماويةِ المحيطةِ بالشمسِ في اتزانٍ منتظم، ولأن الحرارةَ والطاقةَ تنتقلُ من الشمسِ إلى النظامِ الشمسيِّ المحيطِ بها، فلا بُدَّ أن يكونَ مصيرُ الشمسِ كمصيرِ باقي النجومِ الأخرى، وعندها سيختلُّ النظامُ الشمسيُّ، وسيحدثُ تجاذبٌ قويٌّ جدًا بين الكواكبِ والأجرامِ، وتكونُ عندها نهايةُ الكونِ حسبَ القانونِ الثاني وحسبَ نظريةِ الانفجارِ العظيمِ -التي تُعتبرُ من أدقِّ النظرياتِ التي وضَّحت كيفيةَ خلقِ الكونِ وكيف يكونُ تمددُه وكيف ستكونُ نهايتُه- ولأنَّ لكل شيءٍ نهايةٌ، فلا أزليةَ لأي مادةٍ في هذا الكون.

د/ أحمد أدريس الطعان

المسيحُ عليه السلامُ بين الحقائقِ والأوهام

عنوانُ كتابٍ من تأليفِ الدكتور محمد وصفي (مراجعةُ وتقديم: علي الجوهري، طباعة دار الفضيلة، القاهرة).

كُتب على غلافِ الكتابِ هذه الجملةُ: "أهمُّ وأخطرُ كتابٍ عن المسيحية" وقد ظننتُ حين قرأت هذه الجملةَ أنَّها من قبيلِ الدعايةِ والترويجِ التجاريِّ فقط، ولكني حين قرأتُ الكتابَ بتأنٍّ وتدقيقٍ وجدتُه بالإضافةِ إلى ما قيل عنه: أهمَّ وأخطرَ وأجملَ ما قرأتُه عن النصرانية في الكتاباتِ المعاصرة.

لقد سار المؤلفُ في كتابِه على منهجٍ واضحٍ تتبعَ فيه المسيحيةَ منذُ نشأتِها، وما آلت إليه عَبر المجامعِ المختلفة، وبيَّن كيف كانت في دعوة المسيحِ عليه السلام، وكيف أصبحت فيما بعدُ على يدِ بولسَ وقسطنطين، وقد اتّسمَ أُسلوبُ المؤلفِ بالسلاسةِ والتدرُّجِ والوضوح، والابتعادِ عن التعقيد، واستخدم في دراستِه منهجيةَ النقلِ والعقلِ والمقارنةِ والتحليل.

إلا أن أبرزَ ما برع فيه هو قدرتُه على توظيفِ النصوصِ الملائمةِ في المكان الملائم، بل إنه يسوقُ القارئَ سَوقاً إلى النتيجةِ التي يُعبِّرُ عنها النصُّ التالي الذي يَستشهدُ به، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يَدلُّ على خِبرتِه واطلاعِه وحافظتِه ومُكنتِه من مادتِه العلميةِ وموضوعِ دراستِه.

ولقد كان يُحسنُ جدًا فنَّ الاستشهادِ بالقرآنِ الكريم، فيُجيدُ الاستدلالَ بالآياتِ القرآنية المناسبةِ في المكان المناسب، ويتخيَّرُ من الآية الجزءَ الملائمَ للفكرةِ المستشهَدِ لها.

إنَّ الكتابَ على صِغرِ حجمِه – قُرابةَ مائتي صفحة – استطاع مؤلفُه أن يُضَمِّنَه بسهولةٍ ويُسرٍ وإحكام خلاصةَ الأبحاثِ والتحليلات والانتقاداتِ التي تكتنفُ النصرانيةَ،

فكأنَّ المؤلفَ قد آلى على نفسِه أَلَّا يُقدِّمَ لقارئِه إلا زبدةَ القول، وكأن المؤلفَ يقفُ على رَبوةٍ عاليةٍ يُشرف من فوقها على كلّ مُكوّنات النصرانيةِ ونُصوصِها فيتخيرُ منها ما يريد، ويدعُ ما لا يريد.

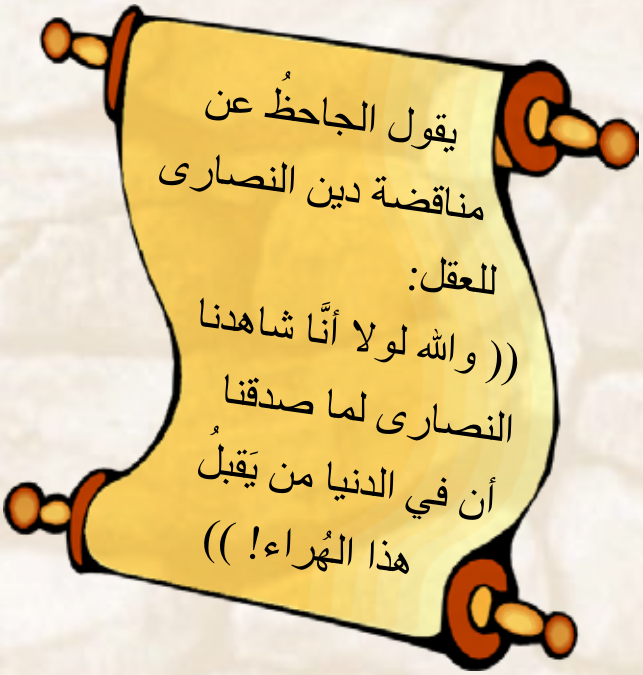

وحين ينتهي القارئُ من الكتابِ يجدُ أنه قد ألمّ بخيوطِ أعظمِ خدعةٍ في تاريخِ البشرية، وأنه قد أمسك بتلابيبِ أكبرِ دجالٍ ظهر على هذه الأرض، إنه بولسُ الذي صاغ خُرافةَ النصرانية الجديدة، ونسَج أوهامَها ومعتقداتِها كما هي اليومَ لدى النصارى البولسيين، والتي أحكمَ خيوطَها ورسَم خطوطَها.

لا أعني بذلك أن المؤلفَ هو أولُ من لفت الأنظارَ إلى هذه الحقائق، وكشفَ المستورَ من هذه المصائب، فهناك الآلافُ من المجلداتِ التي كُتبتْ في ذلك قبلَه وبعدَه –كما يقولُ ول ديورانت– ولكنَّ ميزةَ الكتابِ أنه يُقدم الخلاصةَ بإيجازٍ غيرِ مُخلٍّ، وأسلوبٍ يجمعُ بين المنهجيةِ العلميةِ والدقةِ الأكاديمية، والعاطفةِ الدعويةِ الإقناعية.

ويعتمدُ في ذلك على النقدِ الخارجي، والنقدِ الداخليِّ للكُتب التي يُقال إنها مقدسة ، ولعل براعتَه كانت أَجلى في الوقوفِ عند التناقضاتِ الداخليةِ التي تحتويها هذه الكتبُ في كل موضوعٍ من موضوعاتِها، ولا سيما في الخطوط العريضةِ للنصرانية، والمعتقداتِ الرئيسةِ التي تؤمنُ بها.

إن من أجملِ ما يُحذيكَ به أنَّه يلتقطُ لك الحقَّ الأبلجَ من بين رُكامِ الباطلِ الكثيفِ في الأناجيل ، ولا يكتفي بذلك، بل يسرعُ بتسليطِ الضوءِ على هذا الحقِّ من القرآنِ الكريم، فإذا هما دليلان متآخيانِ متعاضِدان، وإذا هما ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

والحقُّ أن الإنسانَ يقفُ حائراً جدًّا أمامَ هذه الديانةِ النصرانيةِ المضطربةِ والمتناقضة، والمُصادمةِ لبدائِهِ العقل: كيف يوجدُ في الدنيا من يَدين بها؟ وكما قال الجاحظُ: والله لولا أنَّا شاهدنا النصارى لما صدقنا أن في الدنيا من يَقبلُ هذا الهُراء!

ولكن لا تفسيرَ لذلك إلا أنه من قبيل: هذا ما وجدنا عليه آباءَنا، كما أَخبرَ الباري عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤].

إن محورَ أيِّ دينٍ هو الوحي، أو كُتّابُ الوحي، أو كتابُه المقدس، ولا يوجدُ أغربُ عند الباحثِ المتأملِ والمدققِ من أن تُعتبرَ كُتُبُهم المحرفة كتباً مقدسة؟! فالتناقضاتُ والاختلافاتُ والمهازلُ والفضائحُ تملأُ صفحاتِ هذه الكتب، فأين أهلُها الذين يدينون بها وأين عقولُهم وضمائرُهم؟ ألا يقرؤون؟! أم أنه ليس من عادتهم اصطحابُ عقولِهم أثناءَ القراءةِ في الكتاب الذي يقال: إنه مقدس؟!

إنَّ من أهمِّ ما يواجهُ النصارى من المُعضلاتِ:

- أنَّ ما بين أيدينا اليوم ليس هو الكتابُ المقدس، وإنما ترجمةٌ يُظنُّ أنها له، أما النُّسَخُ الأصليةُ للتوراةِ والأناجيلِ فهي غيرُ موجودة، إنها مفقودة! وبالتالي فما بين أيدينا لا ندري أهو ترجمةٌ حقيقيةٌ أم مزيفة؟ إذ لا بُدَّ من إحضارِ

الأصلِ لمعرفة الحقيقة، والأصلُ دونَه خرْطُ القَتاد [١].

- من هم الكُتّابُ الذين كتبوا هذه الكتب؟ إنها تُنسبُ إليهم ولكن لا يوجد أيُّ دليلٍ يؤكد هذه النسبة؟
- ومتى كُتبت هذه الكتب، وفي أيِّ زمن؟ وكم بينها وبين موسى أو المسيحِ عليهما السلام ؟ إنَّ علماءَهم حائرون في ذلك أشدَّ الحيرة[٢].
- ومن هم المترجمون الذين ترجموا هذه الكتبِ إلى اللغاتِ المختلفة، وما حالُهم من الصدقِ والصلاحِ والأمانة؟ إنهم مجهولون! فكيف يُبنى دينٌ على الجهل بأهمِّ ركنٍ من أركانِه: كتابُه المقدس!

إن الاختلافاتِ الهائلةَ الموجودةَ في الكتاب المقدسِ والتي أوصلَها بعضهم إلى ثلاثين ألفاً، وبعضُهم إلى خمسين ألفاً، وبعضُهم إلى مليون [٣]، والتناقضاتِ الصارخةَ في الرواياتِ مثلِ نَسَبِ المسيحِ عليه السلامُ بين إنجيلَي متى ولوقا وتناقضِهما مع التوراة [٤]، والتحريفاتِ الخطيرةَ بين النُسخِ المعتمدةِ لدى الكاثوليك والبروتستانت، والتي اعترف بها علماؤهم بكل صراحة [٥]، إنَّ كلَّ ذلك يزيدُنا يقيناً في اعتقادِنا بتحريف هذه الكتب، وخصوصاً إذا علمنا أن أبرزَ رسولٍ مُعتبرٍ في النصرانية كان من أشد أعدائها، وكان حريصاً على اضطهادِها،

واضطهادِ أتباعِها والقضاءِ عليهم، وها هو قد تحولَ إلى رسولٍ عظيمٍ بنظرِ النصارى! بمعجزةٍ ادّعى أنها حصلت له على طريق دمشق [٦].

وقد جعل بولسُ من المسيحِ إلهاً ليكون هو الرسولُ المنفرد، ليُتيحَ لنفسه عندئذ أن يُحلَّ ويُحرمَ كما يشاء، فنقضَ الختان، وقد كان فريضة، وعَولَم النصرانية وقد كانت المسيحية لخرافِ بني إسرائيلَ الضالةِ فقط، ومزج ديانتَه الجديدةَ بأمشاجٍ مختلفةٍ من الفلسفاتِ والوثنيات المختلفة التي كانت سائدةً في البلاد آنذاك. ونسخ بولسُ كلَّ تعاليم المسيح عليه السلام القائمةِ على التوحيد المطلق، والإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ، والإيمانِ بالمسيح عليه السلام نبيًّا ورسولًا من الله ربِّ العالمين[٧].

وهذا ما حدا ببرنابا إلى الشجار والاختلاف معه، لأنه أدرك أن بولسَ يريد أن ينحرف برسالةِ المسيح عليه السلام من التوحيد إلى الوثنية الرومانية، لكي ينالَ الحظوةَ والشهرةَ عند السلطة وبين الناس.

وانتصرتْ النصرانية البولسية فعلاً، وتلاشت مسيحيةُ عيسى عليه السلام بين ضجيجِ الكَذَبَة، وصخَبِ الدجالين، واضطهادِ السلاطين، وما نشاهدُه اليومَ هو النصرانية البولْسيةُ التي لا تَمُتُّ إلى المسيح عيسى عليه السلام بأيِّ صلة. إنها خليطٌ من أديانِ البراهمةِ والبوذيين، ووثنياتِ الرومان، وفلسفاتِ اليونان وغيرِهم، وقد أثبتت ذلك المقارناتُ الناصعةُ، والنصوصُ الساطعة [٨].

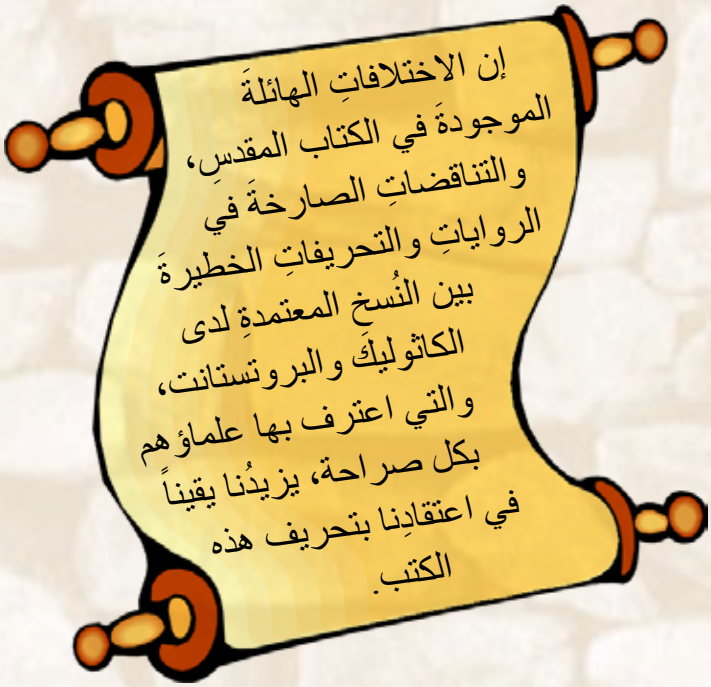

ويا عجباً! بدلاً من أن يحظى بولسُ بلعنةِ النصارى ومَقتِهم وكراهيتِهم، لأنه حرَّف دينَهم ولعب به وعبَثَ بأصولِه، ينالُ رضاهُم ويحظى بتقديسِهم وتمجيدِهم!! فاعجبْ من أُمةٍ جنحت إلى هذا المهوى، وسقطت في هذا المثوى.

لقد نجح المؤلفُ الدكتورُ محمد وصفي رحمه الله تعالى في الاستشهادِ لكل فكرةٍ بنصٍّ يؤيدُه من الأناجيلِ أو رسائلِ بولس، ليصل بالقارئ إلى نتيجةٍ مهمةٍ مُؤداها أن التحريفَ لم يَطمسْ الحقيقةَ كاملةً، وإنما طمسَ بعضَها، وظلت هناك شواهدُ قائمةٌ هي بمثابةِ المناراتِ التي تُرشدُ إلى الطريق في وسطِ ذلك الظلامِ المُدلَهِم.

إن النصوصَ التي يُستشهَد بها على أُلوهيةِ المسيحِ عليه السلامُ نصوصٌ غامضةٌ تتجاذبُها آلافُ الاحتمالات، وإلى جانبِها نصوصٌ واضحةٌ كالشمسِ في إثبات التوحيد، والكمال والتنزيهِ للباري عزَّ وجلَّ، ورسالةِ المسيح عليه السلام، فأيُّهما أولى: أن تُحملَ النصوصُ الغامضةُ المعارضةُ لبدائِهِ العقلِ على النصوصِ الواضحةِ المتآخية مع العقل أم العكس؟! [٩].

وروايةُ الصلبِ متناقضةٌ أيَّما تناقضٍ في أحداثٍ كثيرة، ومواضعَ خطيرة ، لا يصعبُ على الباحثِ المتفحصِ أن يكتشف مواطن الكذب، ومواضِع التحريف، بل ومواطنِ الحق أيضاً، مثلَ هذا النص الذي يُصرحُ بكل وضوحٍ بأن المسيحَ عليه السلامُ رُفع إلى السماء:

"وأخرجهم إلى بيت عنيا، ورفع يديه وباركهم، وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء"

[لوقا ٢٤: ٥٠-٥١]

ومِثلُه ما جاء في مرقص:

"ثم إن الرب ارتفع إلى السماء" [مرقص ١٦: ١٩]

وهذا ما صرح به كتاب الله عزَّ وجلَّ :

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨].

إن القرآن الكريم هو رسالةٌ للنصارى جميعاً بمختلفِ طوائفِهم ليُصححوا دينَهم، وليعرفوا المسيحَ عليه السلام على حقيقتِه، ولِيَنبُذوا خرافاتِ بولسَ وأباطيلِه، ووثنياتِ قسطنطين وأضاليلِه، إنه رسالةٌ قصدت إصلاحَ النصرانية وإنقاذَها من استحواذِ الشياطين، وتخريفاتِ المُبطلين. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء:٤٧]، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عليه﴾ [المائدة:٤٨]، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف:٦].

وجاء القرآن كاشفًا لأفاعيل الرُّهبان، وتلاعباتِهم بكلام الله عزَّ وجلَّ وفضحاً لما حَرفوه، وتصحيحاً لما زَيفوه، وبياناً لما كتموه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤].

إن القرآن الكريم رسالةٌ لكل نصراني يدَّعي حبَّ المسيحَ عليه السلام أن ينبُذَ الهوى، والتقليدَ والتعصب، ويقبلَ الدعوةَ القرآنيةَ بكل جوانبِها التصحيحية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

فالمسيحُ عليه السلامُ من أعظمِ رُسلِ اللهِ جل وعلا، ومن المقربينَ والمكرَّمين ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥].

وهو ليس أكثرَ من رسول، إنه رسولٌ مَثَلُه مَثَلُ آلافِ الرسلِ الذين أرسلَهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى الناسِ لهدايتِهم وتصحيحِ طريقِهم ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥].

والمسيحُ عليه السلامُ يعتزُّ بعبوديتِه للهِ عزَّ وجلَّ، لأن عبوديةَ الله عزَّ وجلَّ محضُ السيادة ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢].

والمسيحُ عليه السلامُ ليس إلهاً، ولا أقنوماً في شركةٍ إلهية، لأن الله عزَّ وجلَّ واحدٌ أحد، لا شريكَ له: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:١٧١].

والمسيحُ عليه السلامُ ليس الله، بل رسولٌ من أجَلِّ رُسُلِ الله عزَّ وجلَّ، يأمرُ بالتوحيدِ ويَحضُّ عليه، وينهى عن الشركِ ويُحذرُ منه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وجاء في إنجيل يوحنا:

"وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، وأن يسوع الذي أرسلته" [يوحنا١٧: ٣].

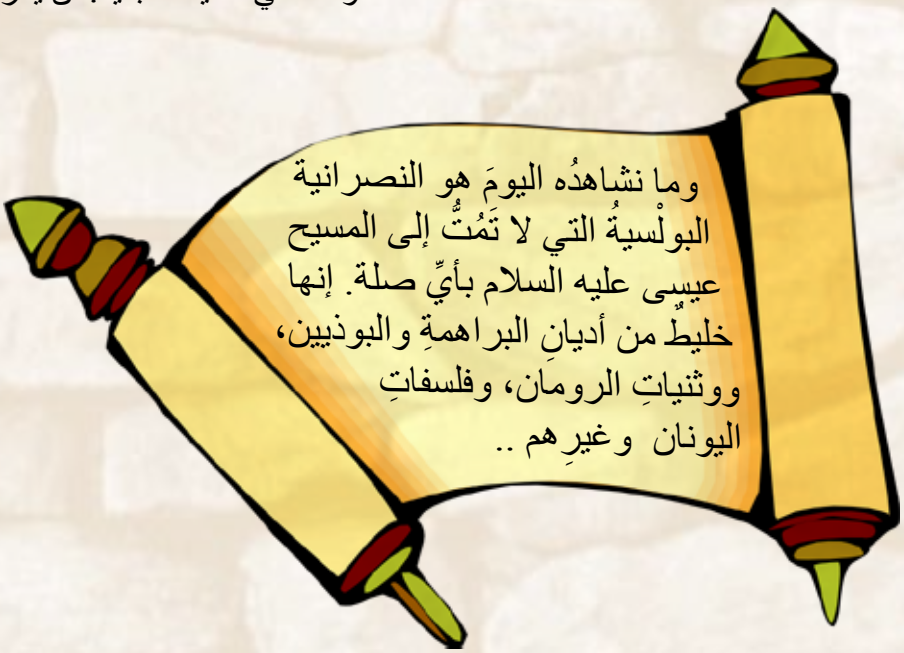

والمعجزاتُ التي جاء بها المسيحُ عليه السلام هي من أدَلِّ الدلالاتِ على نبُوتِه ورسالتِه وقُربِه من الله عزَّ وجلَّ، مَثَلُه مَثَلُ غيرِه من الأنبياء، وهو يؤكدُ -كما في القرآنِ الكريم، بل في الأناجيل أيضا- أنه لا يفعلُ شيئاً من المعجزات إلا بإذن الله ، انظُر إلى عبارةِ القرآنِ وتأمل فيها ثم قارنها بما جاءَ في الأناجيل المعتمدةِ لدى النصارى اليوم. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ

مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

لاحِظ كم يُكررُ القرآنُ الكريمُ كلمةَ بإذني حتى لا يَضلَّ الناسُ في فَهم هذه المعجزات، فما هي إلا تأييدٌ من الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه المسيح عليه السلام، وتصديقٌ له، والمسيحُ لا يملكُ من أمرِ نفسِه شيئاً، أليس هو القائل:

"أنا لا أقدر أن أفعلَ من نفسي شيئاً" [يوحنا ٥: ٣٠].

ويعترفُ بأن إرادتَه تابعةٌ لإرادةِ الله جل وعلا:

"ولكن ليس كما أُريد أنا، بل كما تريدُ أنت" [متى ٢٦: ٣٩].

ولمَّا رأى الناسَ يُعجبون بمعجزاته ويُمجدونَه قال لهم:

"كلُّ شيءٍ قد دُفع إلي من أبي" [متى ١١: ٢٧].

إن القرآنَ الكريمَ يستحقُّ العناية والتدبر من كل نصراني يبحثُ عن الحقيقة، لأنه يجدُ فيه ضالَّته، ويَخرجُ به من حيرتِه. ولذلك نجدُ كثيراً من العلماءِ النصارى الذين اهتدوا إلى الإسلام ، بعد أن تطمئنَّ قلوبُهم إلى كتابِ الله عزَّ وجلَّ، لا يعرفون الوسيلةَ التي يُعبرون بها عن شكرِهم لله عزَّ وجلَّ، ولا يجدونَ العباراتِ التي تُعبرُ عن سرورِهم وطُمأنينتِهم بالقرآن الكريم، فيتجهونَ مُسرعين إلى التأليفِ والكتابةِ لأقوامهم من النصارى ناصحينَ لهم، ومشفقينَ عليهم، ومن هؤلاء : عبدُ الأحد داود الذي كتب كتابَه "محمد في الكتاب المقدس" والقسُّ المصري إبراهيم خليل أحمد الذي كتب كتابَه "محمد في التوراة والإنجيل" والرسامُ الفرنسيُّ مسيو إتين دينيه -ناصر الدين- الذي كتب عدةَ كُتبٍ منها "محمدٌ رسولُ الله ﷺ" و "ربيعُ القلوب" و "أشعةٌ خاصةٌ بنورِ الإسلام" و "الحجُّ إلى بيت الله الحرام"، ومحمد أسد صاحبُ كتابِ "الطريقُ إلى مكة" ومراد هوفمان صاحبُ كتاب "الإسلامُ كبديل" و "الطريق إلى مكة" وغيرها...

وختاماً أقول : إن كتابَ الدكتور محمد وصفي (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام) كتابٌ مهمٌ في بابِه، وأدعو الإخوةَ جميعاً إلى قراءَتِه ونشرِه والتعريفِ به فهو جديرٌ بذلك، والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميِّ
وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين

الهوامش :

[١] راجع: "المسيح بين الحقائق والأوهام" ص: ٤٠.
[٢] راجع السابق ص: ٣٩.
[٣] راجع السابق ص: ٤٠.
[٤] راجع السابق ص: ١٥.
[٥] راجع السابق ص: ٣٧.
[٦] راجع السابق ص: ٤٩.
[٧] راجع السابق ص: ١٠٩ – ١١١.
[٨] راجع السابق ص: ١٣٦.
[٩] راجع السابق ص: ١٠٩ – ١١٤.

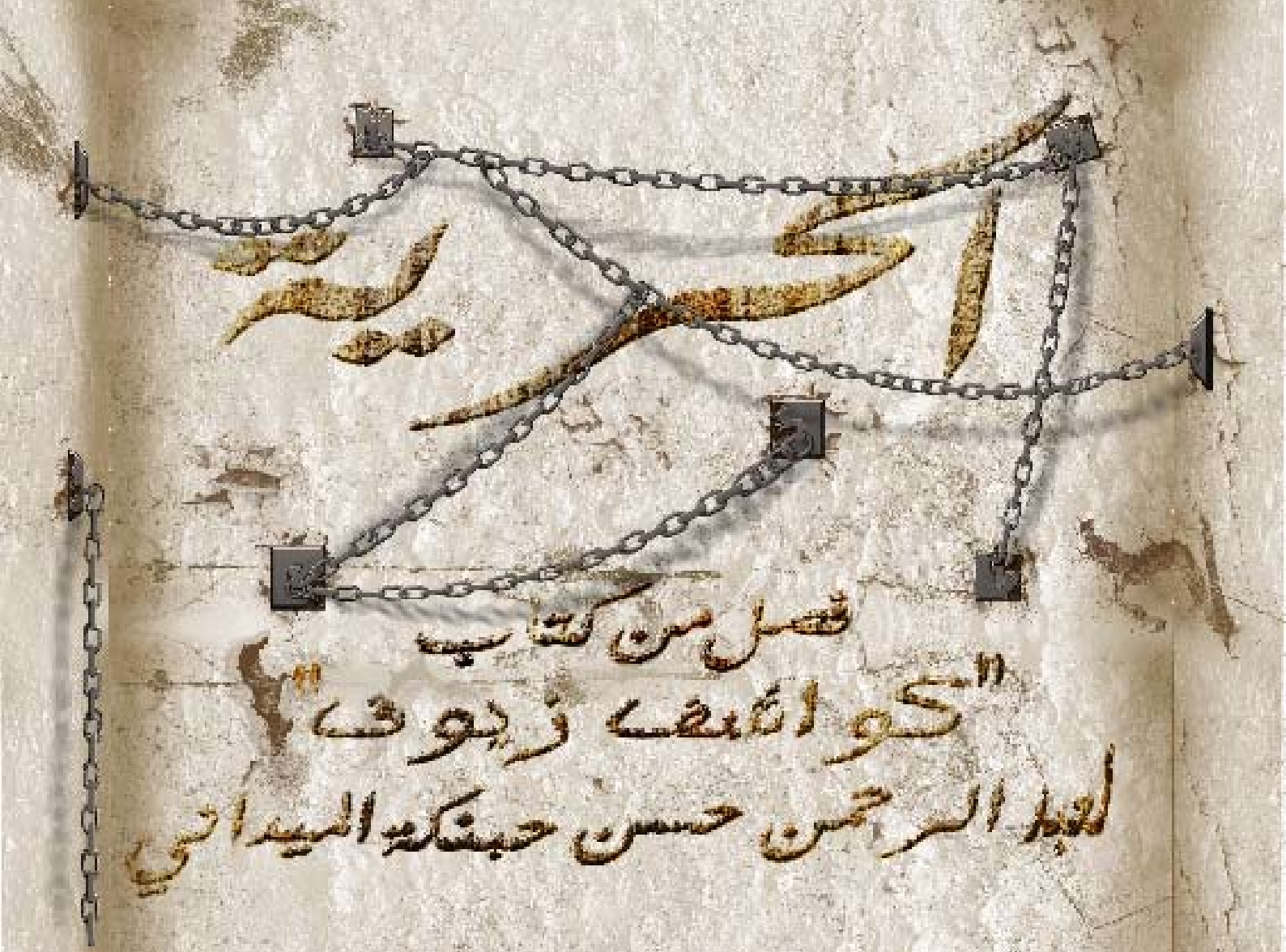

في ظروف الاستبداد الدكتاتوري الذي كان سائداً في أوروبّا قبل الثورة الفرنسية، وإبّان مصادرةِ حرّيّات الطبقات الضعيفة في المجتمع، وحريات الأفراد الذين لا يملكون انتزاع حقوقهم في معظم المجتمعات الغربية، انطلق دعاة الحرية ينادون بها مبدأً إنسانيّاً، وأخذت فئات كثيرة تروّجها.

واستغلت المنظمات ذات المصالح الخاصة الرامية إلى تقويض النظم الإدارية، والمؤسسات الدينيّة، والنظم الاجتماعية ومؤسساتها، لتكون لها السيطرة الشاملة بعد ذلك. استغلّت شعارَ الحرية، فوسعت دائرتها شيئاً فشيئاً، دون أن تشعر الجماهير بمكيدة التوسيع التعميمي المنافي لمنطق العقل، ولمبادئ الأخلاق، ولمصالح الناس أفراداً وجماعات، ولنظام الخلق وقوانين الوجود الجبرية فيما عدا الأعمال الإرادية للمخلوق، وغفل عن ذلك أيضاً كثير من أهل الفكر والعلم.

وصادمت الماسونية والمكر اليهودي فيها شعار الحرّيّة، وجعلته أحد مبادئها، ثم قامت الثورة الفرنسية التي كان المكر اليهودي وراء تدبيرها والتخطيط لها، وتحريك القوى لاندلاعها، وتنظيم المنظمات لتفجيرها،

والتربص لاستثمارها، واستغلالها، والانقضاض على غنائمها بعد قيامها ونجاحها، فجعلت هذه الثورة الحرية واحداً من شعارها المثلث: "الحرّية – المساواة – الإخاء".

واندفعت الجماهير مفتونة بشعار الحرّيّة، وهي لا ترى من معاني الحرية إلى مساحة محدودة مقبولة معقولة، يتحقق لها بها الخلاص من الظلم الاجتماعي الذي تعاني منه، والخلاص من الاستبداد الضاغط عليها، والقاهر لإرادتها بقوى ظالمة آثمة، طاغية غاشمة.

ونشط شياطين الإنس بقيادة المردة من يهود يروّجون لشعار الحرّية، ويوسّعون من مساحة دلالتها شيئاً فشيئاً، حتى تشمل كلّ سلوك فرديّ أو جماعيّ يحقّق أهداف الإفساد في الأرض، وتدمير كلّ القيم الدينيّة والخلقية، وإماتة الوازع الديني والخلقي في الأفراد، وتحطيم النظم الاجتماعية الإدارية والسياسية والاقتصادية وغيرها، بغية إضعاف البشرية، وتمكين اليهود في العالم من السيطرة التامة عليها بعد إضعافها وتفتيتها، وبثّها بثّاً متنافراً متبايناً متعادياً متصارعاً متقاتلاً.

ونجم عن إطلاق شعار الحريّة دون أن تكون محصورة في المساحة التي تكون فيها نافعة وصالحة، انطلاق الوحش البشريّ مفسداً مدمّراً محطّماً الفضائل، والأخلاق، والقيم الدينية، والنظم الاجتماعية، ومحطّماً مبادئ الحقّ والعدل، ومستغلاً شعار الحرية لتبرير كل فسادٍ وإفساد، ولاستخدام القوة التي تعتمد عليها الثورات مع ما تشعله من فتن، لمصادرة حياة خصومها، وأمنهم ومالهم وحقهم، ولمحاربة كلّ منصف يحبّ الحق والعدل والفضيلة، ويطالب بسيادة هذه القيم.

إنّ الحرّية مثل النار لا تستخدم إلاّ ضمن حدود وضوابط، وبحذر شديد، ومراقبة تامّة، وإلا أكلت الأخضر واليابس، وابتلعت كلّ شيء أتت عليه

وفهم المجرمون الحريّة على معنى إطلاق أيديهم في ارتكاب الجرائم على ما يشتهون، قتلاً وسلباً، وظلماً وعدواناً.

وفهم الفاسقون والفاسقات الحرّية على معنى أن لهم الحق الكامل في أن يفسقوا ويفجروا على ما يشتهون، دون أن يكون لأحدٍ أو جهةٍ ما حق في محاسبتهم ومعاقبتهم، أو كفّهم عن فسقهم وإباحيّتهم التي لا تحدّها حدود.

وفهم محتالو سلب الأموال الحرية على معنى إطلاق أيديهم في ألوان الغش والاحتكارات، وحيل المضاربات، وخُدَعِ القمار، وأشباه ذلك، لسلب الناس أموالهم وهم غافلون.

وفهم العمّال والصنّاع والأجراء الحرّية على معنى استخدام

تكتُّلاتهم وتنظيماتهم للوصول إلى الاستيلاء على أموال أرباب العمل، ومصانعهم، وممتلكاتهم، ونهبها وسلبها، أو استحقاق الأجور المرتفعة دون أن يقوموا بعلم يستحقّون عليه الأجور التي يطالبون بتقاضيها.

وفهمت النساء الحرّية على معنى انطلاقهن من ضوابط العفة، وتمرّدهن وانسياحهنّ بحسب أهوائهنّ، وتفلتهنّ من كلّ واجب اجتماعي، وكلّ ضابط خلقي.

وفهمَ المراهقون والمراهقات، والفتيان والفتيات الحرّيّة على معنى الانفلات الأرعن، والتمرّد على الرعاة من الأسرة، وعلى المربين والمعلّمين.

وصار كلّ ضابط للسلوك من سلطة مدنيّة أو عسكريّة أو قانونية أو دينية أو أسرية عدوّاً للحرية، في مفهوم حملة شعار الحرّية الذين أطلقوها من حدودها المقبولة المعقولة، وعَمَّموها تعميماً مدمراً للإنسانية وكرامتها، ومخرجاً للإنسانية عن موقعه الذي وضعه الله فيه موضع الابتلاء المسْتَتْبَع بالحسابِ والجزاء، وقاذفاً به إلى مستوى الأنعام أو أضلّ سبيلاً.

هذا هو ما كان المفسدون في الأرض قد أرادوه وخطّطوا له، وأطلقوا من أجله شعار الحرّية، ووسعوا من مساحتها حتى عمَّموها تعميماً فاسداً مفسداً، مصادماً للحقّ والخير والفضيلة والجمال والكمال.

إنّ الحرّية مثل النار لا تستخدم إلاّ ضمن حدود وضوابط، وبحذر شديد، ومراقبة تامّة، وإلا أكلت الأخضر واليابس، وابتلعت كلّ شيء أتت عليه.

إنّ الحرّية المقبولة المعقولة في واقع الناس ذاتُ مجالٍ محدود، وهذا المجال المحدود لا يجوز تجاوزه ولا تعدّيه، لا في منطق العقل، ولا في منطق مصلحة الإنسان في ذاته، ولا في منطق مصلحة المجتمع البشري.

فإذا تجاوزت حدودها كانت وحشاً مفترساً، أو ناراً هائجة ثائرة محرقة، أو سيلاً عرماً مدمّراً، وكانت نذير شؤم وخراب، وفوضى واضطراب، وصراعات بشرية تدمر الحضارات، وتمهّد لأن تَحُلَّ بهم سنّة الله في الذين خلوا من قبلهم، إهلاكٌ عامٌّ وعذاب أليم.

إنّ الحرّية المقبولة المعقولة التي يقرّها الإسلام تقع ضمن المجالات التاليات، وعلى وفق القيود المبينة فيها.

المجـال الأول

حرّيّة الاعتقاد ، فالإنسان المسؤول المكلّف حرٌّ في هذه الحياة الدنيا في أن يؤمن بقلبه بما يشاء، من حقٍّ أو باطل، لكنه مُلاحَقٌ بالمسؤولية عند الله عزّ وجلّ عن اختياره الذي كان حُراً فيه، وكانت حريته هي مناط ابتلائه وامتحانه في الحياة الدنيا.

وهي هنا حرّية الممتحن المسؤول، وليست حرية مطلقة خالية من المسؤولية والجزاء.

دلّ على هذه الحرية الملاحقة بالمسؤولية والجزاء عند الله عدّة آيات قرآنية، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

المجال الثاني

حرّية العبادة على وفق الاعتقاد، والحرية هنا كسابقتها هي حرّية الممتحن المسؤول الملاحق عند الله بالحساب والجزاء، وليست حرّية مطلقةً خالية من المسؤولية والجزاء.

دلّ على هذه الحرية الملاحقة بالمسؤولية والجزاء الربّاني، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ۞ فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/٤١ مصحف/٦١ نزول):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

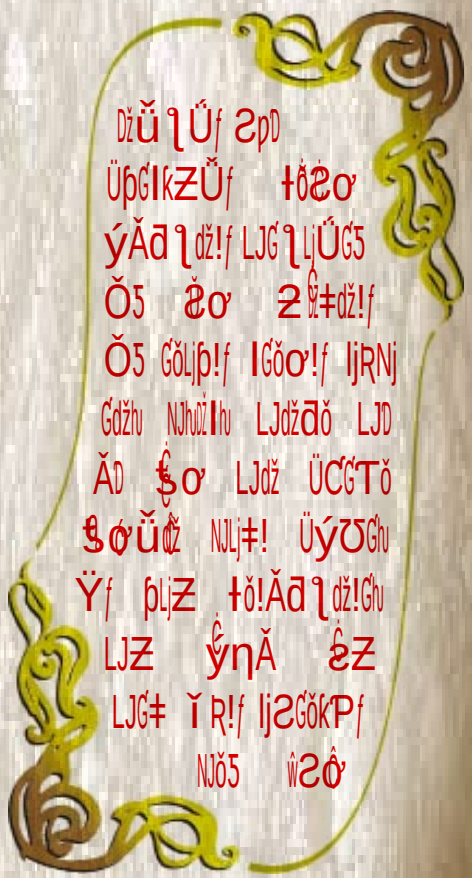

المجال الثالث

حرّيةُ اختيار ما يُريدُ الإنسانُ ويَشْتَهِي ويهوى مما أباح الله في شريعته لعباده من عمل ظاهر أو باطن.

وهذه الحرية غير ملاحقة بالمسؤولية، ما لم ينجم عنها لدى استعمال تركُ واجب، أو فعل محرّم، أو عدوان على حقِّ الغير فرداً كان أو جماعة.

وإنما كانت الحرّية في هذا المجال غير مُلاحقةٍ بالمسؤولية لأنّ الرّبّ الخالق سبحانه وتعالى الذي له الخلق والأمر، قد منحها ذلك، فأباح لها أن تختار ما تشتهي من أصنافٍ أو أفرادٍ داخلة في دائرة المباحات التي أباحها، وأنزل فيها إذناً شرعياً في دائرة المباحات التي أباحها بفعل أو ترك.

وما أباح الله من سلوك شخصيّ لا علاقة للمجتمع به، أو لا يمسّ إنساناً بضرر، فلا حقّ لأحدٍ أيّاً كان بأن يحرمه منه، أو يمنعه عنه.

ومن الخير للمجتمع أن يترك هذا المجال مفتوحاً للناس، يُعبّرون فيه عن حرّيّاتهم الخاصة، ويشعرون فيه باستقلاليتهم.

المجال الرابع

حرّية تعبير الإنسان عن أفكاره وآرائه، ما لم يكن مضلّلاً بباطل واضح البطلان، أو داعياً لضُرٍّ أو شرٍّ أو أذى، أو مشجّعاً على إدحاض الحقّ ونصرة الباطل، ونشر الظلم والعدوان والفساد في الأرض.

المجال الخامس

كلّ ما للإنسان فيه حقٌّ مشروع واضح للجميع ولا يحتاج إثباته إلى دعوى قضائية ، فإنّه يملك الحرّية في الحصول عليه بوسيلة مشروعة، لا ضرر فيها ولا عدوان ولا ظلم ولا أذى، ولا مخالفة فيها لما أمر الله به أو لما نهى عنه.

وأمّا ما لا حقّ للإنسان فيه فمن حقّ المجتمع أن يحجر على حريته فيه.

أمثلة:

١) من حقّ الإنسان العمل لكسب ما قسم الله له من رزق، لاستعماله فيما أمر الله به أو أذن فيه.

فهو إذن يملك الحرّية في العمل لكسب رزقه في المجالات التي لا ضرر فيها ولا عدوان ولا ظلم ولا أذى، ولا مخالفة لما أمر الله به ولما نهى الله عنه.

وعلى المجتمع أن يتيح له فرصة السعي لكسب رزقه ضمن هذه المجالات، وأن لا يحجر على حريته تلك، ومن ذلك السعي للحصول على عمل مأجور لدى الدولة أو أيَّة مؤسّسة عامّة، ومستحقُّ العمل هو الأكثر كفاية للقيام به، ما دامت الشروط العامة متوافرة فيه.

٢) ومن حقّ الإنسان ذي الباءة أن يتزوّج، فهو إذن يملك الحرّية في أن يسعى في اختيار زوجة يستطيع الحصول على موافقتها وموافقة وليّ أمرها، من اللواتي أذن الله في شريعته لعباده بأن يتزوّج منهنّ.

وعلى المجتمع أن يتيح له فرصة السعي لاختيار الزوجة التي تلائمه، ضمن ما أذن الله له، وأن لا يحجر عليه حريّته في هذا المجال.

٣) ومن حقّ الإنسان أن يتزوّد من العلم والمعرفة بما يشاء من كلّ نافع مفيد، أمر الله به أو أذن في تعلّمه.

فهو إذن يملك الحرّية في أن يسعى في تحصيل العلم الذي يريد ضمن حدود الإذن الربّاني.

وعلى المجتمع أن يتيح له فرصة السعي لتحصيل ما يشاء من علم مأذون به شرعاً، على مقدار ما يملك من قدراتٍ تمكّنه من ذلك التحصيل.

٤) ومن الحقوق المشروعة للإنسان حقّ مطالبته بحقوقه التي هي له، وحق الاعتراض على ظلم لَحِقَ به، وحقّ الشكوى ضد من ظلمه، وحقّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ربّما يكون واجباً عليه في كثير من الأحوال، فمن حقه ممارسته، وحقُّ توجيه النصح لغيره محكوماً أو حاكماً، رعيّةً أو سلطاناً.

الحجر على الحرّية

إذا عرفنا المجالات التي يملك فيها الإنسان الحرّية الملاحقة بالمسؤولية والجزاء، والحرّية غير الملاحقة بالمسؤولية، يتّضح لنا ما يلي:

الأول: إنّه لا حرّيّة في ظلم ولا عدوان ولا هضم لحقوق الآخرين.

الثاني: لا حرّيّة في مخالفة الحقّ والعدل الخير في كلّ سلوك عملي ذي أثر مادّيّ يضرّ المجتمع أو يؤذيه أو يفسد نظامه.

الثالث: لا حرّية لمن آمن برسالة الإسلام ، وبايع على الالتزام بأحكامه وشرائعه، في أن يخالف أحكامه بترك فرائضه وارتكاب محرّماته، وإلا كان عرضةً للملاحقة بالمسؤولية، وبالجزاء المقرّر في أحكامه من قبل سلطة الدولة الإسلامية، إذا كانت المخالفة لها عقوبة دنيويّة مقرّرة في الإسلام. ومما يخالف أحكام الإسلام، الانتحار، أو ارتكاب ما يضر بجسم الإنسان أو نفسه

أو ملكاته الفكرية.

الرابـع: من أعلن دخوله في الإسلام، فقد أعلن التزامه به وبأحكامه، فلا حرّيّة له بعد ذلك في الردّة عنه، وإلاّ فهو ملاحقٌ بعد استتابته بالمسؤولية الجزائية التي عقوبتها القتل، ولا حرّية له أيضاً في الاعتراض على أحكامه وشرائعه المقرّرة.

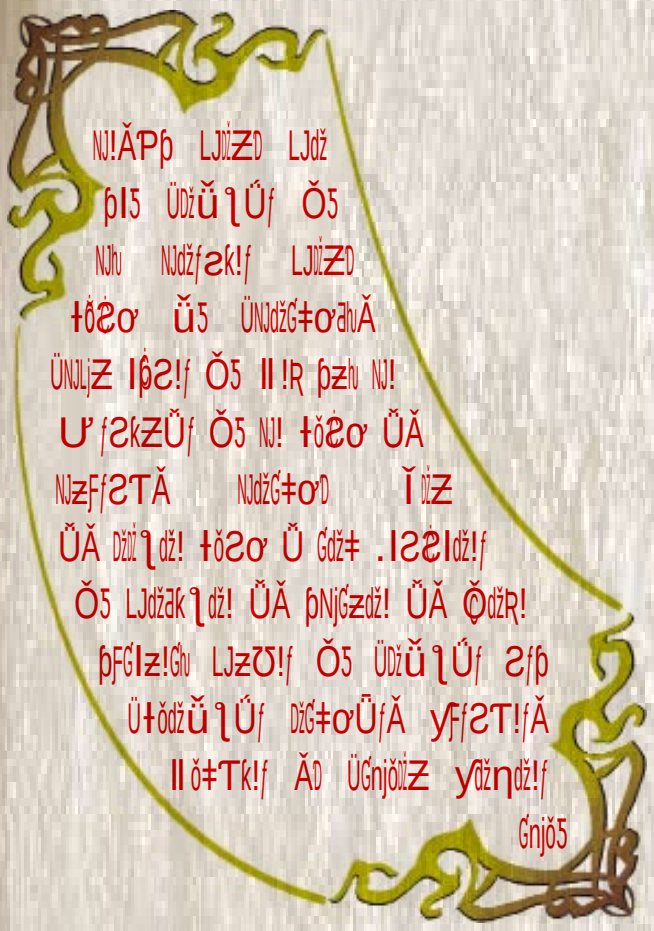

الخامس: لا حرية لمسلم ولا لذميّ ولا لمعاهد ولا لمستأمن في دار الإسلام، في الطعن بالعقائد والشرائع والأحكام الإسلامية، المجمع عليها، أو التشكيك فيها، أو تشويهها أو تحريفها، أو القيام بما يسيء لنظام الإسلام، أو لدولته، أو لجماعة المسلمين، لأنّ في ذلك نقضاً لما التزم به كلّ منهم.

ولا حرّية لأحد من هؤلاء في الدعاية لأعمال حرّمها الإسلام، أو لأشياء حرّم الإسلام تناولها كالخمور، أو الترويج لأفكار مناقضة لحقائق الإسلام وتعاليمه.

ولا حرّية لأحد منهم في تأسيس مؤسسات عامّة أو خاصة تشتمل على أعمال أو أشياء محرمة في الإسلام، كبنوك ربوية، أو بيوتٍ للقمار، أو بيوت للزنا والدعارة والفجور، أو حانات لبيع الخمور وشربها، أو مصانع لصناعتها، ولكن يسمح للنصارى بشربها وصناعتها داخل بيوتهم، دون أن يتظاهروا بذلك أمام المسلمين.

خـاتمــة

وتقع في موضوعات شتّى مغالطات كثيرة، بسبب كسر الحدود الفاصلة بين الحق الباطل، والعدل والظلم، والخير والشرّ، ومن أسباب ذلك إطلاق الحرّية، والتلاعب بمفاهيمها، وعدم تحديد المساحات التي تكون فيها صالحة ومقبولة، وينجم عن ذلك شرٌّ مستطير، وفسادٌ عريض.

يقول ابن قيم الجوزيه *

فصل في مشاهد الخلق في المعصية

وهذا الفصل من أجلِّ فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد، وهو حقيق بأن تُثْنَى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمى (سفر الهجرتين في طريق السعادتين).

فأما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان، ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها.

فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية فضلا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر، وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم من نفسه كلبية: لو صادف جيفةً تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب، ونبح كلَّ كلبٍ يدنو منها فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة، ولا يسمح لكلب بشيء منها. وهمه شِبَعُ بطنِه من أي طعام اتفق: ميتةٍ أو مُذكًّى، خبيثٍ أو طيبٍ، ولا يستحيي من قبيح! {إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}، إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك، وإن منعته هَرَّك ونبحك.

ومنهم من نفسه حمارية: لم تخلق إلا للكدِّ والعلف، كلما زِيدَ في علفه زيد في كدِّه، أبكمُ الحيوانِ وأقلُّه بصيرةً، ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به من حَمَّلَه كتابَه فلم يحمله معرفةً ولا فقها ولا عملا. ومَثَّل بالكلب عالِمَ السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلدَ إلى الأرض واتبع هواه ...

ومنهم من نفسه سبعية غضبية: هِمَّتُه العدوان على الناس، وقهرُهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبُع لما يصدرُ منه.

ومنهم من نفسه فأرية: فاسق بطبعه، مفسد لما جاروه، تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم من نفسه على نفوس ذوات السموم والحُمَّات: كالحية والعقرب وغيرهما وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه، فيُدخِلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ!

والعين وحدها لم تفعل شيئًا، وإنما النفسُ الخبيثة السُّميَّة تكيفت بكيفية غضبية مع شدة حسد وإعجاب، وقابلت المَعِينَ على غِرَّة منه وغفلة وهو أعزل من سلاحه، فلدغته كالحية التي تنظر إلى موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهَشُه، فإما عَطِبَ وإما أَذِيَ ...

ومن الناس من طبعه طبع خنزير: يمر بالطيبات فلا يلوي عليها، فإذا قام الإنسان عن رجِيعِه قَمَّهُ. وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعافَ أضعافِ المساوئِ فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأى سَقْطَةً أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها فجعلها فاكهته ونُقْلَهُ.

ومنهم من هو على طبيعة الطاووس: ليس له إلا التَّطَوُّسُ والتزيُّنُ بالرِّيش، وليس وراء ذلك من شيء.

ومنهم من هو على طبيعة الجمل: أحقدُ الحيوانِ، وأغلظُه كبدًا.

ومنهم من هو على طبيعة الدُبِّ: أبكمٌ خبيثٌ، وعلى طبيعةِ القِرْدِ.

وأحمدُ طبائعِ الحيوانات طبائعُ الخيلِ: التي هي أشرف الحيوانات نفوسًا، وأكرمها طبعًا. وكذلك الغنم.

وكلُّ من أَلِفَ ضربًا من ضروبِ هذه الحيوانات اكتسبَ من طبعِه وخُلُقِه. فإنْ تغذَّى بلحمه كان الشَّبَه أقوى، فإن الغاذِي شبيهٌ بالمُغْتذَى.

ولهذا حرَّمَ اللهُ أكلَ لحومِ السباع وجوارحِ الطير؛ لما تُورِثُ آكِلَها من شَبَهِ نفوسِها بها. والله أعلم.

والمقصود: أنَّ أصحابَ هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميلِ نفوسِهم وشهواتِهم، لا يعرفون ما وراءَ ذلك ألْبَتَّةَ.

* في كتابه (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) (١/ ٣٣٠- ٣٣٣)

أحداث غزة وحقيقة الأعداء

بقلم الشيخ ياسر البرهامي

﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمّةً ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فضحت أحداث حصار غزة حقيقة ما يسمونه «بالشرعية الدولية» وشعارات «حقوق الإنسان» و«الديمقراطية» و«حرية الشعوب»، فضيحة لا تدع لعاقل شبهة في أن هذه الشعارات ليست إلا أصنام عجوة حين جاع الغرب الحاقد أكلها، بل هي عندهم أهون من ذلك.

فما ذنب شعب غزة المسلم إلا أنه اختار -حسب القواعد الديمقراطية- قيادة مسلمة فاستحق العقاب الجماعي والحصار الظالم الذي لا يتعرض له شعب على وجه الأرض بهذه الطريقة ، والكل ساكت لا يحرك ساكناً في حين يعلن البرلمان الأوربي تقاريره عن مخالفة دول في المنطقة لحقوق الإنسان، فهل اليهود فوق مستوى البشر فلا يُسألون؟ أم أن أهل غزة دون مستوى البشرية فلا «حقوق إنسان» لهم؟ وأظن أن جمعيات الرفق بالحيوان عندهم تعتبر ما يحدث منافياً لحقوق الحيوان، لكن المشكلة أن من يتعرض للحصار هم من المسلمين، وهؤلاء القوم هم كما وصفهم الله -تعالى-: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ التوبة: ١٠

فهل آن للمسلمين في كل مكان أن يعرفوا حقيقة عدوهم، وطبيعة الصراع بينهم وبين أعدائهم؛ ذلك أن كثيراً من المسلمين إلى يومنا هذا ما زالوا يرون في الذئب راعياً، وفي العدو حامياً وحارساً، وفي الولي عدواً محارباً، فوقعت الفتنة والفساد الكبير الذي أخبر الله به إذا ضُيعت قضية الولاء والبراء، قال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾لأنفال:٧٣

ورغم قسوة الحصار وآلامه التي تعتصر قلوب كل المسلمين في الأرض، إلا أنه –سبحانه وتعالى- جاعل فيه خيراً كثيراً، وجاعل من بعده فرجاً ومخرجاً.

فنقول لأهلنا في غزة:

أبشروا وأملوا وارجوا كل خير، فيكفيكم شرفاً وعزة أن أسوتكم في مثل هذا الحصار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه حين حوصروا في شعب أبي طالب، وكذلك حين حاصرتهم الأحزاب ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج: ٨ ، ثم كانت عقب كل من الحِصارين أنواع من الفرج والتمكين والانطلاق لدعوة الحق، فأبشروا بنصر الله طالما صبرتم كما صبروا واحتسبتم كما

احتسبوا، وتوكلتم كما توكلوا، ونقول لهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾الأعراف: ١٢٨

ونقول لليهود

ومن والاهم ونصرهم وأمدَّهم بما يقتلون به المسلمين، ويحصرونهم ويظلمونهم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧

نقول لهم: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ هود: ١٢١-١٢٢، فستعلمون قريباً عاقبة بغيكم وظلمكم، فلن تزيد شدة الحصار المسلمين في كل مكان - وليس في غزة فقط- إلا بغضاً لكم وكرهاً وعداوة، ولن تغير اختيارهم إلى من تودون أن يختاروهم لقيادتهم من الناصحين لعدوهم الغاشين لأمتهم.

ولن تزيدكم نظرتكم المستعلية لأنفسكم فوق شعوب العالم -فتعطون أنفسكم حق سفك الدماء وانتهاك الحرمات، وهدم البيوت، واغتيال من

شئتم، فإذا حاول أحد الدفاع عن نفسه كان إرهابياً يستحق السحق- لن تزيدكم نظرتكم هذه عند الله إلا ذلاً وصغاراً، فأسوتكم فيها فرعون وملؤه وأمثاله، وعاقبتكم عاقبته، ومصيركم مصير كل متكبر.

ونقول لحكام المسلمين:

اتقوا الله فيما في أيديكم من أمانات، واتقوا الله في أرواح المسلمين التي تُزهق كل ساعة جوعاً ومرضاً وحبساً وفقراً وضعفاً.

اتقوا الله واصنعوا شيئاً فبأيدكم إمكانات لو اجتمعتم وأحسنتم استغلالها لأثَّرتم في العالم، وليست الاتفاقيات مع اليهود هي الاتفاقيات الوحيدة التي لا يجوز الخروج عليها، أليست هناك اتفاقيات وإعلانات حقوق الإنسان وحقوق المدنين حال الحرب وغيرها؟ ثم أليس فوق هذه الاتفاقيات المواثيق الإلهية التي تحرم الإعانة على قتل مسلم أو ظلمه وانتهاك حرمته ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثم

وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المائدة:٢.

ونقول للمسلمين في العالم كله ولعبادهم وصلحائهم خاصة:

نصرتكم لإخوانكم في فلسطين وفي كل بلاد المسلمين المحتلة إنما تكون بنصرتكم لدينكم وصدق التزامكم به، فلولا ذنوبنا لما أصابتنا المصائب، ولما تمكن العدو من بلادنا.

إن حال أمتنا اليوم هو ميراث تقصير هذا الجيل وأجيال قبله كثيرة، ابتعدوا عن الإيمان، ووقعوا في البدع والشرك والضلالات والمعاصي والمنكرات، والافتراق والحسد والبغضاء والتنازع واتباع الشهوات؛ فضعفت الأمة ووهنت، فتمكن منها عدوها، وتحكم في مقدراتها، ولا سبيل إلى التخلص من ذلك إلا بتوبة صادقة، وعودة جادة إلى الالتزام الحقيقي ظاهراً وباطناً بهذا الدين أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١.

فإنما يتحمل مآسي المسلمين من رفض العودة، وسوَّف التوبة، وأصر على الفسوق والعصيان والإباء والطغيان، وشغل نفسه وأمته بتوافه الأمور، وترك الجادة والسبيل الحق وغرق في بحار الشبهات والشهوات، وقد قضى الله - سبحانه- أنه يولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون، فإذا تركنا الظلم لم يسلط الله علينا الظالمين.

فيا عباد الله

الدعاء الدعاء، فإن دعوة المظلوم لا ترد، ونحن كلنا قد ظلمنا بما يفعل بإخواننا فاجتهدوا في الدعاء خصوصاً في أوقات الإجابة، وأحوال الإجابة في الصلوات والأسحار، وبين الأذان والإقامة وفي السجدات، والقنوت، وفي كل وقت، عسى الله أن يستجيب لدعوة صالحة فيفرج بها عن أمتنا.

ونقول لعلماء المسلمين ودعاتهم:

انصحوا لأمتكم أئمتِها وعامتِها، وقولوا الحق وبينوه في كل مكان ومجال، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، وبينوا للأمة مَن وليها ومَن عدوها، وما معنى موالاة هذا العدو وصورها، وأحيوا قضايا الأمة وقضايا الإيمان والإسلام والإحسان في القلوب والعقول. ولا تكتموا شيئاً من الدين، واحذروا من الركون إلى الذين ظلموا ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ هود: ١١٣.

اللهم أعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدى لنا، وانصرنا على من بغى علينا، اللهم اجعلنا لك شكارين، لك ذكارين، لك مطواعين، لك رهابين، إليك أواهين منيبين، تقبل توبتنا، وثبت حجتنا، وأجب دعوتنا، واهد قلوبنا، وسدد ألسنتا، واسلل سخائم صدورنا.اللهم آمين

المصدر:

www.salafvoice.com

موقع صوت السلف

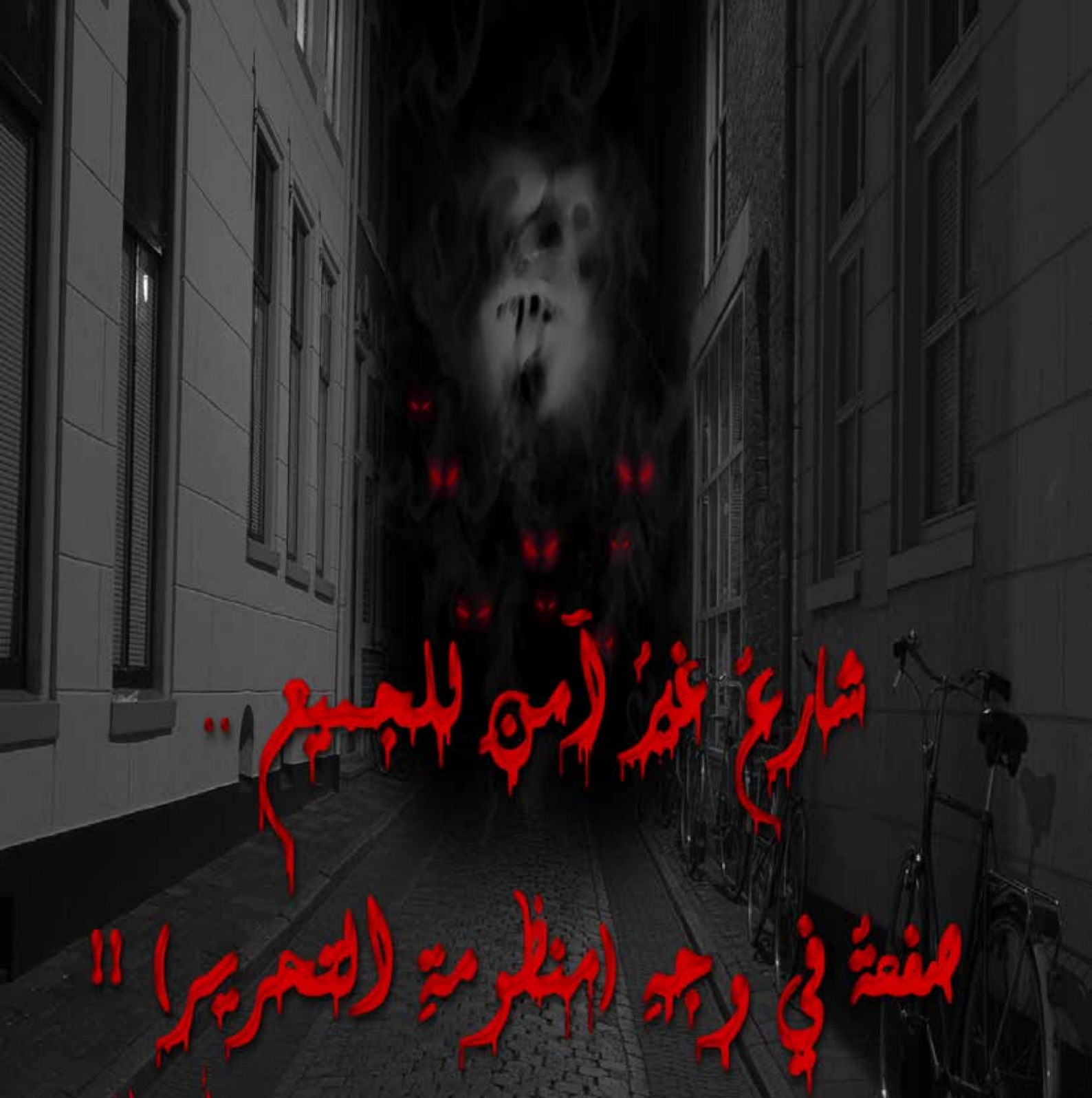

شارعٌ غيرُ آمنٍ للجميع..

صفعةٌ في وجهِ المنظومةِ التحرريرا!!

بقلم أميرة الجلباب

في غمامةٍ مُعتمةٍ من هواجسِ الخوفِ المحيط .. وحالِ ضنكٍ وشرٍ يُنتظر .. وعلى شفا جُرُفٍ هارٍ من نقيعِ الخطر .. أضحت (المرأةُ الجديدة)[1] تعيش حياتَها اليوم تحت مِظلةِ (المنظومةِ التحرُّريَّة)[2].. كما أراد لها من قبلُ مُحرِروها .. وكما خَطط لها من ولدوها .. لمّا خرجوا مبَشِرين بها يومَ مولدِها ولكنهم في ظلام الخبثِ وأَدوها !!..

كم كانت وجوهُهم سوداء !

صمتًا !.. لاتسلْ بأيِّ ذنبٍ قتلوها..

صعبٌ براءتُها هنـا !

فلا تسلْ حُزنَ القلوبِ .. ولا دمعَ المروءةِ والحيـاء..

ولا تسل ندي الجبينِ إذا ما انكشفَ الغطـاء..

ولا تسل عن غيرةِ الحُر .. ولا روحِ الإبـاء..

وسل أُمتي عن شِرعةٍ نُبذت وراء..

فحلَّ البـلاء !

الخطبُ جمٌّ .. ولا عزاء!!

تبحثُ عن أمان !

هل أُخبرتْ؟!.. لقد أضحت مهمةُ العثورِ على (شارعٍ آمنٍ للجميع)[٣] .. مهمةً شاقةً، ومعاناةً دائمةً، وأزمةً نفسيةً.. تُثقلُ كاهلَ (المرأةِ الجديدة)، وأُمنيةً من الأمانيِّ العزيزةِ عندَها، كلما أرادت الخروجَ من بيتها!.. فهي اليومَ وكلَّ يومٍ تتوقعُ الخطرَ الدَّاهمَ أن يصيبَها والأذى أن يحيطَ بها.. في ظلِّ منظومةِ التحررِ والعلمانيةِ والاختلاطِ والمساواةِ والتقدميةِ النكراءَ التي ابتدعوها، وفي النفوسِ نفثوها، وفي كلِّ مناحي الحياةِ بثّوها، وفي عروقِ المجتمعِ سَرى سُمُّها وبدمِه مزجوها.

ضريبةً تنزلُ كالمطرقةِ على رؤوسِهم.. وفضائحَ تُزلزلُ قواعدَ منظومتِهم المتهالِكة.. وتتصدعُ أركانُها وهي للسقوطِ أصلاً آيلة.. وتنفرجُ بوضوحٍ فيها هذه الشقوقُ الغائرة.. التي لم يكن يراها من قبلُ إلا البصير!

وكم نصحَ البصيرُ: أنِ احذروا..

فقالوا: لا نُحبُّ الناصحين!

وقد بُحَّ صوتُ المنادي مشفِقًا: لا تفسدوا..

فقالوا: إنما نحن مصلحون!

تجمعت غمامةُ الخوفِ هذه مثلَ (سحابةٍ سوداءَ) في سماءِ حياةِ هذه المرأة كلما أرادت الخروج من بيتها، بعدما أفرزَتها سنواتٌ طِوالٌ من تدويرِ نفاياتِ منظومةِ التحررِ الغربيةِ في القلوبِ والعقولِ وفي وسائلِ الإعلامِ والتعليمِ والفنِّ والفكرِ والثقافة!

تحت غمامةٍ دهماء، وتحت مِظلةٍ سوداءَ، باتت (المرأةُ الجديدة) تعيشُ حياتها.. ظلماتٌ بعضُها فوق بعض.. ومن لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له من نور.

رحم اللهُ آدابًا مزَّقوها.. وحضارةً رفضوها.. بَشَّرت بخروجِ (المرأةِ المسلمة) من بيتها وهي آمنة، من القادسيةِ إلى بيتِ الله تعالى لا تخاف أحدًا إلا اللهَ تعالى!

نظرةُ تأمُّلٍ وتحليل!

إن المجتمعاتِ بطبيعتِها في حالٍ دائمةٍ من التغيُّرِ والتحوُّل، وهذا التغيرُ يكون مشاهَدًا ملموسًا، أو يكونُ بطيئًا يتعذرُ الوقوفُ عليه إلا بمقارنةِ المجتمعِ القائم اليومَ بما كان عليه فيما سبق، وفي كل حالٍ هناك عواملُ أدت لهذا التحوُّلِ والتغيير[٤].

وما يعنينا هنا هو التحولُ البطيءُ وعواملُه المتراكمَة[٥].. فإن ألوانَ (الأذى) المتصعِدةُ التي تتعرضُ لها بعضُ النساءِ اليوم، والتي لم تكن من قبلُ قد استشرتْ بهذا الشكل المخيف، ما هي إلا ثمارٌ قبيحةُ المنظرِ، كريهةُ الرائحةِ، مُرَّةُ المذاقِ، لسنواتٍ طويلةٍ من المعيشةِ المتحررةِ من دين اللهِ تعالى، المنفلتةِ من قِيمِ وآدابِ الإسلامِ في كافةِ مجالات الحياة..

إن ألوانَ (الأذى) المتصعِدةُ التي تتعرضُ لها بعضُ النساءِ اليوم، والتي لم تكن من قبلُ قد استشرتْ بهذا الشكل المخيف، ما هي إلا ثمارٌ قبيحةُ المنظرِ، كريهةُ الرائحةِ، مُرَّةُ المذاقِ، لسنواتٍ طويلةٍ من المعيشةِ المتحررةِ من دين اللهِ تعالى، المنفلتةِ من قِيمِ وآدابِ الإسلامِ في كافةِ مجالاتَ الحياة..

إذ يُعدُّ وقوعُ (الأذى) - في حدِّ ذاتِه - على المرأةِ إذا خرجت من بيتها داخلَ المجتمعِ الطاهرِ النظيفِ أمرًا واردًا، حيث لا ينفكُّ احتمالُ وُرودِه -بطبيعةِ الحالِ- عن وجودِ البشر، لكنه في الوضعِ الطبيعيِّ لا يتعدى كونَه حالةً شاذةً أو سلوكًا فرديًا مستهجَنًا، كفيلاً -إذا وقع- بأن تَغلي لأجله الدماءُ في العروق، أو تُسَلَّ لأجله السيوف، أو تندلِعَ له الحروب وتُغزى الدول، كما حدث في التاريخ من قبل!

لكن أن يتفاقمَ الأمرُ ويطفو على السطح، ويتجمَّعَ هذا (الأذى) – في بعض الأوضاع - ليس في صورةٍ فرديةٍ وحالةٍ شاذةٍ محدودةٍ فحسب؛ بل في صورةِ سلوكٍ جماعيٍّ غوغائيٍّ بغيضٍ غريبٍ، تحُفُّه الدياثةُ واللامبالاةُ.. فهو -لعمرُ اللهِ- الخطبُ الجللُ والنذيرُ الخَطِر!!

إن هذا السلوكَ المنحرفَ بصورتِه الجماعيةِ تلك، أو بصورتِه الفرديةِ المنتشرة، ينمُّ عن وجودِ خَللٍ فوق الطبيعي، خللٍ في النَّسق القِيَميّ، (الذي تَعرَّض بدورِه إلى مجموعةِ تغيُّراتٍ نتج عنها تهميشُ القيمِ الدينيةِ وإحلالُ قيمٍ سلبيةٍ أثَّرت عليه وأدت إلى وجودِ ما يمكنُ أن نطلقَ عليه أزمةً أخلاقية)[٦].

إنَّ طبيعةَ هذا السلوكِ وأسبابَه التي تحيطُ به ودواعيه، تُشيرُ في مُجملِها بأصابعِ الاتهام – في نظر الباحثين – إلى عدةِ عواملَ، من أهمِّها وأكبرِها عواملُ ثقافيةٌ وفكرية، من طبيعتِها أنها غيرُ مؤقتةٍ ولا استثنائيةٍ ولاطارئةٍ ولا محدودة، بل تعملُ على نطاقٍ بعيدٍ في الزمان والمكان، أي أنها مؤثرةٌ في شريحةٍ واسعةٍ وعلى مدىً طويل، بحيث يشتركُ التأثيرُ نفسُه على عددٍ كبيرٍ من الأفراد.

هذه العواملُ لا يمكنُ أن تبرأَ منها بسهولةٍ وسائلُ تشكيلِ الفكرِ والوعيَ الاجتماعيِّ، العريضةُ التأثيرِ، الواسعةُ الانتشارِ، والتي تلعبُ دورًا كبيرًا في تشكيلِ القيمِ وتكريسِ المفاهيمِ مقارنةً بدَورِ الأسرةِ أو الخطابِ الديني[٧].

لا شكَّ أن وسائلَ مثل الإعلامِ – المتهم بالتركيزِ على عَرضِ المرأةِ مختزلة في صورة جسد[٨] - والتعليمِ والفنِّ والفكرِ والثقافةِ و"جنودِهم"!، تلك الوسائل التي تُسيِّرُها وتهيمنُ عليها المنظومةُ العلمانيةُ التغريبيةُ التحررية - المدعومةُ بقوىً دوليةٍ ومحلية - دعمًا فجًّا وصريحًا؛ لها الأثرُ الأكبرُ والجنايةُ الأعظمُ في هذا

الانحرافِ السلوكيِّ الخطير!

وهل هناك أَحَزُّ في الصخرِ من مكرِ الليل والنهار؟!

كما لا يُعفيها الانفتاحُ والعولمةُ وتطوُّرُ الوسائلِ التكنولوجيةِ اليومَ من التُّهمةِ، ولا يُقصيها عن مسرحِ الجريمة –وإن كانوا شركاءَ في الجريمة[٩]- إذ يبقى لهذه الوسائلِ اليدُ الطولى في تشكيلِ الوعيَ الاجتماعي، والدَّورُ الذي لا يُستهان به في الضبطِ الاجتماعي[١٠] للقيمِ والأخلاقِ والآدابِ العامة، والتأثيرِ عليها بالسلبِ أو الإيجاب، عَبْرَ سنواتٍ طوالٍ مضت من قبلِ هذا الانفتاح ومن بعدِه.

قَتَل القتيلَ، ثم في جنازتِه يسيرُ!
شعورُ المرأةِ بالخطرِ والتهديدِ
في ظلِّ (منظومةِ التحرير) !

هل بات حقُّ هذه المرأةِ في الشعور بالأمن والسلامة، وحقُّها في أن تأمنَ على نفسِها إذا خرجت من بيتِها؛ حقًا في عِدادِ الأوهام؟! في ظلِّ هيمنةِ النُّظُم العلمانيةِ والليبراليةِ على دَفَّةِ التوجيهِ الثقافيِّ والفكريِّ لأمدٍ طويل، حتى ظهر الخَبَثُ، وطَفت على السطحِ حصيلةُ سنواتٍ طوالٍ من تكريس ثقافةٍ إعلاميةٍ وفكريةٍ مُناهضةٍ للشريعةِ الإسلامية، مُروِّجةً للإباحية، مُرسِّخةً لمبدإِ المساواةِ والاختلاطِ وسائرِ المبادئِ العلمانيةِ والغربية، كانت مُحصلتُها على كيانِ المرأةِ في النهاية أنْ اجتاحَه ذلك التهديدُ.. وآلَ الأمرُ إلى الواقعِ المؤلمِ الذي عَبَّرَ عنه أحدُ الغربيينَ بقولِه: (إن التأثيرَ الغربيَّ الذي يَظهرُ في كلِّ المجالات، ويَقلبُ –رأساً على عقبٍ– المجتمعَ الإسلاميَّ، لا يبدو في جلاءٍ أفضلَ مما يبدو في تحريرِ المرأة)[١١]، ومن هنا فلا عجَبَ أن نسمعَ - بين الحين والحين - عن جرائمَ اجتماعيةٍ تُضاهي الجرائمَ التي تحدثُ في أوربا وأمريكا من قتلٍ واختطافٍ واغتصابٍ وتشريد[١٢].

سنواتٌ طويلةٌ من تدويرِ هذه النفاياتِ في قلوبِ وعقولِ الأمة.. سنواتٌ طويلةٌ بدءًا من رمي البذورِ الخبيثةِ بأيدي دعاةِ "التنويرِ والتحرير"!.. ثم يَسقيها مكرُ الليلِ والنهارِ بأيدي العلمانيةِ والتغريب.. مرورًا باشتدادِ العودِ.. وحتى طُرحت أخيرًا الثمارُ المُرةُ، وأوقعت الضحايا وتفجرتْ في زمنِ العولمةِ والانفتاحِ كأبشعِ ما تكونُ شجرةٌ خبيثةٌ اجتُثت من فوقِ الأرض ما لها من قَرار.

ها هي (ضحيتُهم)[١٣] تصيحُ بهم: (وامعتصماه)!.. فما كان جوابُ حالِهم إلا أن قالوا لها: ما ثَمَّ معتصمٌ يُغيث!.. وما كان لنا عليكِ من سلطانٍ إلا أن دعوناكِ فاستجبتِ لنا!

لا يُلام الذئبُ في عُدوانِه إن يَكُ الراعي عدوَّ الغنمِ!

هل اكتشفتْ هذه المرأةُ أن دعواتِهم لم تكن آمنةً ومضمونة، ورأت كيف اضطُرت هذه المنظومةُ لمَّا انكشف عوارُها أن تُعلنَ عن فشلِها -بطريقةٍ غيرِ مباشرة– في تحقيقِ الأمنِ للمرأةِ التي نادَوا بها، وتحاولَ أن تداري سوءَتها -ولن تستطيعَ!- بترقيعاتٍ وحملاتٍ مثل: (شارعٌ آمنٌ للجميع) و(تفعيلُ قانونِ العقوبات) والبحثُ عن (أمنِ المرأةِ الإنساني)، و(حملةُ المليونِ توقيع)... إلخ.

أيَّ أمنٍ يريدونَه لها؟! ..وقد أراقوا بأيديهم ماءَ وجهِها وأعدموا حياتَها.. هلا اعترفوا بفشلِهم الذي حققوه وإفلاسِهم الذي جمعوه لها؟! .. هلا اعترفوا أنهم قد أخذوا منها أكثرَ مما أعطوها ..وحرموها وما منحوها.. ودمروها وما حاموا عنها ولا حمَوها.. وأنَّ دعواتِهمُ التحررية تلك ما جرَّت عليها إلا الكبتَ والخراب، والمشاكلَ النفسيةَ والاجتماعية، وما لا حدَّ له من غمٍّ وضيقٍ وهمومٍ وأحزان!

ويبقى السؤال: هل يكفي القانونُ لحمايتِها؟!.. لاشكَّ أن له دَورٌ في الضبط، ولكنه مثلَ دَورِ الأبتر.

إذ هل تراه يسيرُ معها ليحميها في كل شارعٍ ومكتبِ عملٍ وقاعةِ درسٍ وزقاقٍ تدخلُه؟!.. وحتى لو فُرض أن عيَّنوا حارسَ أمنٍ خلفَ كلِّ امرأةٍ تخرج من بيتِها؛ أتُراها تَسلمُ منه أو يَسلمُ منها؟! [١٤].

أنَّى للبشرِ أن يَصلوا إلى حلٍّ شاملٍ ورادعٍ لهذه الظاهرةِ وهم بعيدون عن نورِ اللهِ تعالى، أم تُراهم يُضيفون بقوانينِهم تلكَ مأساةً جديدةً للإنسانية، فإنَّه يكفينا ما أصابنا من شؤمِها جرَّاءَ اقصاءِ أحكامِ الشريعةِ الإسلامية عنها!

قال تعالى:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

[طه:١٢٣-١٢٤]

والمجتمعاتُ الإسلاميةُ أيضا ينالُها من هذا الشقاءِ بقدرِ إعراضِها عن الله تعالى.

إن المجتمعَ الذي لم يتحلَّ بالقِيم يتحوَّلُ إلى غابة، والطبعُ إذا لم يرتبطْ بالسلوكِ الرفيع يتحولُ إلى همجية، والحياةُ إذا لم يضبطْها قانونٌ من السماء تتحولُ إلى فوضى. هكذا بدأتِ العلمانيةُ بتقويضِ أركانِ المجتمع عندما زعمتْ أنَّ تحريرَ المرأةِ يقتضي انسلاخَها من دينِها، وخروجَها على قانونِ السماءِ الذي يضبطُ الحياة[١٥].

طوقُ النجــاة!

إنَّ هذا البلاءَ الذي ظهرَ في المجتمع، وهذا الشقاءَ الذي آلَ إليه حالُ بعضِ النساءِ يؤكدُ الحاجةَ الماسَّةَ إلى طوقِ نجاةٍ، وحِرزِ أمان، ورُكنٍ حصين، وملاذٍ أمين، ينتشلُ الناسَ مما غرقوا فيه، ويهديهم إلى الطريقِ المستقيم الذي حادَ عنه الإنسانُ منذ أن قدَّسَ عقلَه وألَّه هَواه، وحادَّ وحيَ ربِّه وسلى عنه.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

[الجاثية:٢١]

وإن "التدابيرَ الوقائيَّة" لتأمينِ المرأةِ إذا خرجت من بيتها، والضماناتِ التي تنالُها، في ظل (المنظومةِ الإسلاميَّة) موثوقةٌ ووفيرة –كما سنُبينه- مما يجعلُها بحقٍّ طوقًا للنَّجاة، ولعلها من الوَفرة والغِنى بمكانٍ يجعلُ من العسير جدًّا حصرَها أو تعدادَها بالسردِ والتفصيلِ في هذا الموضع، لذا نكتفي هنا ببعض الومضات.

بعيدةٌ هي عن (الأذى) ؛ إذا...!!

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

[الأحزاب:٥٩]

كلُّ شيء بعيدًا عن الإسلامِ وخارجَ نطاقِه متهالِكٌ ولا بُدَّ..

انظُر كيف جعلَتها المنظومةُ التحررِيةُ الغربيةُ (أَمَةً) تتعرضُ لأبشع أنواعِ الإيذاء.. بينما جعلها الإسلامُ حرَّةً مصونةً لمَّا أمَرها بإدناءِ الجلباب..

أين هي القوانينُ الرادعةُ (الموضوعةُ) التي ستحمي المرأةَ، بجانب ما ضمِنه اللهُ تعالى لها في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾؟!.. وأيُّهما أحكَمُ وأضمَنُ للمرأةِ وللمجتمع ؟! وأين الثرى من الثريا؟!

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ﴾: ﴿أي أولى وأجدرَ وأقرب بأن يُعرفن أنهن عفيفاتٌ[١٦] شريفاتٌ، غيرَ متطلعاتٍ لريبة، قاصراتِ الطرف، راضياتٍ بالتُّقى، لا يتطلعن إلى الفاحشةِ ولا مُقدماتِها ولا دواعيها، مُنضبطاتٌ في سلوكِهن الذي هو في غايةِ الحرصِ والحذر، فتنقطعُ الأطماعُ عنهُن، بخلافِ التبذُّلِ والتكشُّفِ والسفورِ فهو داعيةٌ إلى نظرِ الرجال إليهنَّ وتشعُّبِ الفكرةِ فيهنَّ، والمرأةُ إذا كانت غايةً في التستُّرِ والانضمامِ والصيانة، لم يُقْدَمْ عليها بخلافِ المتبرجةِ أو المُتبذِّلةِ، فإنها مطموعٌ فيها﴾.

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: ﴿لا يؤذيهنَّ أهلُ الريبةِ والفُساقُ بالتعرض لهن، فلا يُتعرضْ لهن، ولا يَلقَيْنَ ما يَكرهْنَ، وهو نصٌّ على أن معرفةَ محاسنِ المرأةِ إيذاءٌ لها ولغيرِها بالفتنةِ والشر، ولذلك حرَّم اللهُ تعالى عليها أن تُظهِرَ من بدنِها ما تُعرف به محاسنُها أيًّا كانت، ودلَّ أيضًا على وجودِ أذيةٍ إن لم يحتجبْنَ، وذلك لأنهنَّ إذا لم يحتجِبنَ ربما ظُنَّ أنهنَّ غيرَ عفيفاتٍ فيَتعرضُ لهن من في قلبِه مرضٌ فيؤذيهنَّ وربما استُهينَ بهنَّ، فالاحتجابُ حاسمٌ لمطامعِ الطامعين﴾. [١٧].

ويقولُ العلامةُ أبو الأعلى المودوديُّ رحمه اللهُ تعالى: ﴿المرادُ بقوله: ﴿يُعْرَفْنَ﴾ أنَّ كلَّ من يَرَاهُنَّ في هذا اللباسِ الوقورِ المحتشمِ غيرِ المُزينِ يَعرف أنهن شريفاتٍ حرائر، لا أوباشَ متهتكاتٍ متبذلاتٍ فيطمعُ أيُّ مستهترٍ خليعٍ في أن ينالَ منهن مرادَه﴾.

ثم قال في سياقِ كلامِه عن هذه الآيةِ الكريمة: ﴿ويَظهرُ من هذا تِلقائيًا أنَّ هذا الأمرَ صادرٌ إلى النسوةِ اللاتي لا يتلذذنَ بمعاكسةِ الرجالِ لهن، وحمْلَقَتِهم في وجوهِهنَّ وأجسامِهن، ورغبتِهم فيهن، بل يتألَّمنَ ويتأذَّين، هؤلاءِ الشريفاتِ الطيباتِ يقول اللهُ لهن: إن كنتنَّ تُردن أن تُعرَفنَ بهذه الصفةِ فعلاً، وإن كان اهتمامُ الرجال بكُن، ورغبتُهم فيكُن لا يَلِذُّ لَكنَّ حقيقةً، بل يؤذيكُنَّ ويؤلمُكُن، فليس السبيلُ إلى ذلك أن تَخرجن من بيوتِكُن مُتزيناتٍ كعروسٍ ليلةَ زفافِها، وتُظهرن جمالَكن وحُسنَكن بَراقًا أخاذًا كأحسنِ ما يكونُ أمامَ الأعينِ الطامعةِ الجائعة، بل إن أفضلَ سبيلٍ لهذا الغرضِ أن تخرُجنَ خافياتٍ زينتِكنَّ كلَّها في جلبابٍ مُسدَلٍ غيرَ مُزين، وتضربنَ النقابَ على وجوهِكُن، وتمشينَ بطريقةٍ لا يَلفتُ نظرَ الناسِ فيها إليكُنَّ شيءٌ حتى ولا صوتُ حُلِيِّكن.

إن المرأةَ التي تتزينُ وتتهيأُ قبل خروجِها، ولا تُخرجُ قدمَها من منزِلِها قبلَ أن تكونَ قد وضعت أصنافًا وألوانًا من المساحيقِ والخطوط، لا يُمكن أن يكون غرضُها من هذا سوى أنها تريد أن تلفتَ إليها نظرَ الرجالِ وتدعوهُم هي نفسُها إلى الالتفاتِ إليها، والاهتمامِ بها، والرغبةِ فيها، فإن قالت بعدَ ذلك إنَّ النظراتِ الجائعةِ العطشى تؤذيها، وتضايقُها، فليس ذلك منها غيرَ خداعٍ ومكر.

إنَّ قولَ الإنسانِ لا يُحددُ نيَّته، بل إنَّ نيَّتَهُ الحقيقيةَ هي التي تختارُ، وتحددُ شكلَ عملِه، ومن ثَمَّ فالمرأةُ التي تجعلُ نفسَها شيئًا لافتًا للنظر، ثم تمشي أمامَ الرجال،

فيفضحُ فعلُها هذا الدوافعَ التي تَكمنُ خلفَه، والمحركاتِ التي تعملُ وراءَه، ولهذا يتوقعُ طلابُ الفتنةِ منها نفسَ ما يتوقعونه من امرأةٍ من هذا الصنف[١٨].

شُبهةٌ.. وَرَد!

ثَمَّ شبهةٌ برزت هنا من لَيِّ أعناقِ الحقائقِ والتلاعبِ بالكلمات، ترمي لترسيخِ أركانِ الباطل، وفَرْضِ قِيَمِ الفسادِ، والطعنِ في الشريعة، والإرجافِ بين الناس، وردَّدها البعض.

مفادُها: أن الحِجابَ لا يحمي المرأةَ كما تزعمون، وأن كثيرًا من المحجباتِ والمنتقباتِ يتعرضن لأنواع الأذى كالمتبرجاتِ سواءً بسواء! .. وظهرت دراسةٌ تؤكدُ ذلك[١٩] والمشاهداتُ تؤيدُه، وبهذا سقطت حُجة الذين ينادون بالحجاب، ويدندنون "بالدُّرِ المكنون"!!

وحول ذلك طَبَّل العلمانيونَ وزمَّروا!

والرد: أيَّ حجابٍ تقصدون؟!.. أهو حجابُ الموضة، أم الحجابُ العصري، أم العباءةُ المُخصَّرة،، أم نقابُ العينينِ الفاتنتين؟!! أم هو المدعُوُّ "محتشمٌ" بلا هوية؟!

فلتعلمْ أيُّ امرأةٍ "متحجبةٍ" تعرضت لهذا الأذى أنَّ في حجابِها ذلك نوعُ نقصٍ أو خلل!.. أو أنها حادتْ عن السلوك الصوابِ، ولم تَعُد في الحِرزِ والحجابِ الذي أمر اللهُ تعالى به!

ومن قال إن الحجابَ تغطيةُ شعرِ الرأس فقط؟! أو أنَّه مظهرٌ بغير جوهر؟! بل هو عقيدةٌ وسلوكٌ وثقافةٌ وشيءٌ راقٍ لو طُبِّقَ على أصولِه!

إن الإشكاليَّة الأولى تكمن في استخدامِهمُ المُبهَم لكلمةِ "حجاب"!.. ولا يَخفى أنَّ هناك ضوابطٌ وشروطٌ للحجابِ الشرعيِّ الصحيح، تَفُكُّ ما أبهموه!

فإن الأذى الواقعَ على بعضِ النسوةِ بعدما أحدثْنَه وابتدعْنَه في حجابِهن من أُمورٍ ما أنزل اللهُ بها من سلطانٍ ليس مَدعاةً للتعجبِ أبدًا، فإن الجزاءَ من جنسِ العمل!.. حتى إن بعضَ النساءِ تلبسُ حجابَها ولا تقتصرُ على الإخلالِ ببعض شروطِه فحسب، بل تتفننُ أيضًا في تزيينِه وتجميلِه، حتى يصيرَ "حجابًا" بحاجةٍ إلى حجاب.. أو تبَرُّجًا أشدَّ سفورًا من العُري!.. فأنَّى يَسلَمْن من الأذى!

فبفرضِ وقوعِ ذلك الذي "ادَّعَوه" - إذ لم نُسَلِّم لكم بأقاويلِكم وأبحاثكم التي لا تخلو من أكاذيبَ ومزايداتٍ لا تخفى أغراضُها الدنيئةُ - على صاحبةِ الحجابِ الذي "أبهمُوه" أيًّا كان شكلُه؛ فإن الخطأَ ومَكمَنَ الخللِ والتقصيرِ - بلا ريب - في التطبيقِ وأهلِه، مما يُسهمُ في تشويهِ المسلكِ القويم، وليس في شريعةِ الحكيمِ العليم.

من قال إن الحجابَ هو تغطيةُ شعرِ الرأسِ فقط؟! أو أنَّه مظهرٌ بغير جوهر؟!
بل هو عقيدةٌ وسلوكٌ وثقافةٌ وشيءٌ راقٍ لو طُبِّقَ على أصولِه!

ثُم مَن الذي زعمَ أن الحجابَ منفردًا هو العاملُ الوحيدُ الحاسمُ الذي يحمي المرأةَ في ظلِّ (المنظومةِ الإسلاميَّة)، حتى تَسحبوا الاتهامَ بالفشلِ - بسببِ تقصيرِ بعضِ النساءِ فيه - على المنظومةِ الإسلاميةِ كلِّها، محاولينَ إسقاطَها والتشكيكَ في جدواها للمرأة بهذا الافتراءِ والإرجافِ الخبيث، بل إن سلوكَ المرأة، وأخلاقَها والتزامَها بآدابِ الطريقِ، والتدابيرَ الوقائيةَ التي أحاطتها بها الشريعةُ من كلِّ جانب، وقُربَها

من ربِّها عز وجل، وتَعلُّقَ رجائِها به - كما سنبينُ بعد قليل -، كلُّ ذلك له دَورٌ أيضًا في أمنِها إذا خرجت من بيتِها.

وعلى جانبٍ آخرَ يظهرُ سببٌ آخرُ لهذه البلية، في حالةِ بعضِ النساءِ اللاتي يُفاجَأن بها في الحقيقةِ، والسببُ هو الغفلةُ والجهلُ منهن بنصوصِ الشريعةِ وتفاصيلِ أحكامِها، التي وضعتْ "الأسلاكَ الشائكة"، وضوابطَ الخروجِ من المنزل، ووضعتْ حدودَ التعاملِ مع الرجال، مما جعلهنَّ ذلك الجهلُ في سذاجةٍ من أمرِهن وغفلةٍ عن طبائعِ الرجالِ وطبيعةِ خُلقِهم، مما يُظهرُ حكمةَ هذه النصوصِ والآدابِ لمن تأمَّلَ وتدبرَ وعمل بها.

ومن "التدابيرِ الوقائيَّةِ" أيضًا..
ننبه إليها في ومضاتٍ سريعة، على سبيل المثالِ والإجمال:

- الدعاء!، فهو أحدُ العواملِ التي توفرُها (المنظومة الإسلاميَّة) للمرأةِ لتحقيقِ أمنِها، ولا تجده المرأة خارجها!، الأمرُ الذي يُسهمُ في إحساسِ المرأةِ بالأمنِ إذا خرجتْ من بيتِها بشكلٍ كبير، ﴿**ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب**﴾، فتقولُ هي عندَ الخروجِ من المنزل: ﴿ÐžÇ ĥ ÜÇ IÄÞ ÜÄ ýÄơ ÜÄ ÜŸƒ ÎÜŽ ÊÜ‡ÄĸÜŸƒ ÄÐ ÿÜơÊ LJÐ ÌÌĥ ÊÄŽÐ ÖÜĮÇ ÐžnjÜ!ƒ﴾[٢٠]، ﴿ŸÜĜu ÄÐ ÜÐžÜÜÊ ÄÐ ÜÜÊ ÄÐ ÜýéÊ ÄÐ ÿÇÊ ÄÐ ÜýơÊ ÄÐ ÜÐžÜŽ ýnjnÊ ÄÐ ýnjnÊ﴾[٢١].
وتقولُ في أذكارِ الصباحِ والمساء: ﴿ÐžnjÜ!I ÐžnjÜ!ƒ ÜIƧPÜƒÄ GÖLjÞ!ƒ ÖƵ ƒÖƵGž!ƒ ÌÎ?ÇÐ ÖÜĮÇ Ü ŸGÖLjÞÄ ÖÜĮÖÞ ÖƵ ÜƒÖƵGž!ƒÄ ÄƵž!ƒ ÌÎ!ÇÐ ÖÜĮÇ LJÐÇÄ ÜÖĸƒƧÄŽ ƧÊÐƒ ÐžnjÜ!ƒ ÜÖ!GdžÄ ÖÜÑjÐÄ Ü ŸÞÖ LJÖu LJdž ÖÜjUƵơƒ ÐžnjÜ!ƒ ÜÖĸGŽÄƧ ÜÖ!GdžT LJŽÄ ÜÖÜjÖdžÖ LJŽÄ ÜÖƵÜP LJÐÄ LJdž ýGĸÇÊ LJÐ ÌÌÐÜžu ÊÄŽÐÄ ÜÖÞÄ5 LJdžÄ ÖĸơĸÐ﴾[٢٢].

- الحجابُ الشرعيُّ السابغ، معَ كمالِ الستر للوجهِ والكفين، فلا شكَّ أن هذا مما تتضحُ أهميتُه في هذا المقامِ والزمان وتتأكد[٢٣].

- النهيُ عن الخُلوةِ والاختلاطِ المُحرَّم.

- الحثُّ على القرارِ في البيت.

- الحثُّ على التزامِ السلوكِ الإسلاميِّ في الطريق، وهذا يشملُ عدةَ أُمور، منها: غَضَّ البصرِ، وعدمَ التطيُّب، وعدمَ الخضوعِ بالقول، وضربَ الخمارِ على الصدر، والتزامَ حافةِ الطريق، والبعدَ عن الزحامِ ووسائلِ المواصلاتِ غيرِ الآمنة، وأن يكونَ كلامُها مع الرجالِ – إذا تكلمت - مُختَصرًا موضوعيًّا وبحدود.. إلى آخرِ تلك الأخلاقِ والآدابِ الإسلاميةِ الرفيعة.

فَتِّش عن الثغرة!

﴿والآن نستطيعُ –بكل قوةٍ- أن نَجزمَ بحقيقةٍ لا مِراءَ فيها، وهي أنكَ إذا وقفتَ على جريمةٍ فيها نُهِشَ العِرضُ، وذُبِحَ العفافُ، وأُهدِرَ الشرفُ، ثم فتشتَ عن الخيوطِ الأولى التي نَسجتْ هذه الجريمة، وَسَهَّلتْ سبيلَها، فإنكَ حتمًا ستجدُ أن هناك ثغرةً حصلتْ في "الأسلاكِ الشائكةِ" التي وضعتها الشريعةُ الإسلاميةُ بين الرجالِ والنساء، ومن خلالِ هذه الثغرةِ... دخل الشيطان!!﴾[٢٤].

﴿ولو أنَّ المرأةَ التزمتْ درجةَ الحجابِ المُثلى وقرَّت في بيتِها ولو أنها احتاجت للخروجِ فخرجت حَجبت كلَّ بدنِها عن الأجانبِ لَمَا كان لهذه الفتنِ مكانٌ في حياتِنا﴾[٢٥].

الأمنُ منحةٌ ربانيَّةٌ..
ضلَّ من يطلُبُها من غير هذا الطريق!!

يقول ربنا الحكيمُ العليم :

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

[الأنعام:٨١-٨٢]

فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ: منظومةُ (المرأةِ الجديدة)، أم منظومةُ (المرأةِ المسلمة)؟!..

(المنظومة التحرريَّة)، أم (المنظومة الإسلاميَّة)؟!

في هذه الآيةِ الكريمةِ رَبْطٌ واضحٌ وعلاقةٌ قويةٌ بين رسوخِ عقيدةِ التوحيدِ في النفسِ البشريةِ وبين الأمنِ والاطمئنان؛ أما الذين لم تُخالطْ عقيدةُ التوحيدِ قلوبَهُم، ولم تملأْ نفوسَهُم فلن يشعروا أبدًا بذلك الاطمئنانِ والأمنِ النفسي؛ فهُمْ في الدنيا وَجِلُونَ من سَخَطِ الله، وفي الآخرةِ ينتظرُهم عذابٌ من الله أليم، ويَظلون طولَ حياتِهم يخافون من المستقبلِ المجهول، ولا يعرفون معنىً لوجودِهم في هذا الكونِ الرحيب. والملايينُ الضالةُ في العالمِ الماديِّ فقدت الأمنَ والاطمئنانَ عندما مُسختْ فطرتُها؛ ومهما لَهثتْ وراءَ ذلك فلن تحصلَ عليه؛ فذلك الأمنُ منحةٌ ربانيةٌ للذين آمنوا ولم يَخلطوا إيمانَهم بشرك؛ هكذا تُرشدُنا الآيةُ القرآنية؛ وذلك نوعٌ من التحدي والإعجازِ القرآني للبشرِ على مدى العصور اهـ [٢٦].

فهل يمكنُ تحقيقُ الأمنِ بعيدًا عن هذه الآيةِ الكريمة؟!..

لا شك أن العلاقةَ جِدُّ وثيقةٌ بين أمنِ المرأة وحِرصِها على الإيمانِ علمًا وعملاً، عقيدةً وسلوكًا، وأنَّ من كمالِ تحقيقِ التوحيدِ والإيمانِ البُعدُ عن المعاصي والنواهي الشرعيةِ بكلِّ صورِها.

فالظلمُ المقصودُ يفسرُه لنا العلامةُ السعدي - رحمه الله- فيقول: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ الأمنُ من المخاوفِ والعذابِ والشقاء، والهدايةُ إلى الصراطِ المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانَهُم بظلمٍ مُطلقًا لا بشركٍ ولا بمعاصٍ؛ حصل لهم الأمنُ التامُّ والهدايةُ التامة .. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانَهم بالشركِ وحدَه ولكنهم يعملون السيئاتِ حصلَ لهم أصلُ الهداية وأصلُ الأمن وإن لم يحصُلْ لهم كمالُها [٢٧].

فمن لم يخلطْ إيمانَه بظلمِ الشركِ أو المعاصي، وجاهدَ في مَحوِهما من حياته، ثم أخذ بالأسبابِ الأخرى، مُنِح مِنحةَ الهدى والأمان.

فالأمنُ مِنحةٌ ربانيَّةٌ يهبُها الحقُّ سبحانَه وتعالى لِمَن حقَّقَ الإيمانَ وصُبغتْ حياتُه بصبغةٍ إسلاميةٍ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[البقرة:١٣٨]..

وإنَّ العواملَ الداخلةَ في تحقيقِ هذا الأمنِ ليست عواملَ ماديةً فحسب، وإنما العاملُ الأولُ هو الالتزامُ بعقيدةِ التوحيدِ على مستوى الفردِ والجماعةِ سواءً بسواء [٢٨].

وفي ضوءِ هذه الآيةِ الكريمةِ نجدُ أن العبءَ الأكبرَ يقعُ على المرأةِ نفسِها في تحقيقِ أمنِها قبل أن يقعَ على المجتمعِ أو القانون!

فكلَّما كانت المرأةُ المسلمةُ مطيعةً لله ورسولِه، يحكمُ التوحيدُ حياتَها كاملةً، بعيدةً عن المعاصي كالتبرجِ والسفورِ والاختلاطِ والأخلاقِ المرفوضة، ملتزمةً بآدابِ الإسلامِ وتعاليمِه.. كلَّما تحققَ لها الأمنُ على قَدْرِ ذلك.

وكلما كان المجتمع مجتمعًا إسلاميًّا يحكم الإسلام حياته، كلما نالها من الأمن على قدر ذلك.

ومن السذاجةِ والبلاهة أن تسعى في تطلُّبِهِ من قوانينَ مقفِرةً وضعيِّة، أو بمظاهراتٍ وهتافاتٍ غوغائيِّة!

ففي ظلالِ (المنظومةِ الإسلاميَّة) الوارفةِ يسهلُ على (المرأةِ المسلمة) أن تحصلَ على حقوقِها وأمنِها واطمئنانِها من طريقٍ أقربَ بكثيرٍ من طُرقِهم!.. وأن تنعمَ بالأمنِ المنشودِ في ظلِّ ما تُقدمُه لها هذه المنظومةُ من منهجِ حياةٍ متكامل، وتدابيرَ وقائيَّة، وما كفلته لها من ضماناتٍ، وملاذٍ آمن، ومُعتصَمٍ أمين.

فكلَّما كانت المرأةُ المسلمةُ مطيعةً للهِ ورسولِه، يحكمُ التوحيدُ حياتَها كاملةً، بعيدةً عن المعاصي كالتبرجِ والسفورِ والاختلاطِ والأخلاقِ المرفوضة، ملتزمةً بآدابِ الإسلامِ وتعاليمِه.. كلَّما تحققَ لها الأمنُ على قَدْرِ ذلك.

وكلما كان المجتمع مجتمعًا إسلاميًّا يحكم الإسلام حياته، كلما نالها من الأمن على قدر ذلك.

فبُعدًا للمنظومة التحرريَّة، وهنيئًا لمن آمنت والتزمت بشرعِ ربِّها، وبتعاليمِ الإسلامِ وآدابِه الرفيعة، وجديرٌ بها أن يُبدِلَها ربُّها من بَعد الخوفِ أمنًا، ومن بعد الظُلمةِ نورًا.. كما قال سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾

[النور:٥٥]

من الظلماتِ إلى النور!

إنَّ هذه الآدابَ والأخلاقَ الإسلاميةَ الرفيعةَ التي اشتملت عليها (المنظومةُ الإسلاميَّة)، وكفلتها للمرأة والمجتمع، تُحارَبُ ليلَ نهارٍ من قِبلِ (المنظومةِ التحرريَّة الإباحيَّة)، بالكلمةِ الخليعة، والصورةِ الماجنة، والفكرةِ الفاسدة، وبوسائلَ شتى، حتى طُمست معالمُ الحياء، واضمحلَّ الأدبُ، ورقَّ الدينُ في قلوبِ الكثيرين إلا من رحمَ ربي، ونتجت في النهاية هذه الثمار الخبيثة.

وإن (المرأةَ المسلمة) في ظل (المنظومةِ الإسلاميَّة) تعيشُ في ظلالٍ وارفةٍ من الأمان والاطمئنان، هانئةَ البال، ساكنةَ النفس، مطمئنةَ الخاطر، لا تعاني من قلقٍ أو خوفٍ أو مشاكلَ نفسية، ولا تهددُها غمامةٌ سوداءُ من الهواجس المخيفة، ولا تخشى من هذا الخطر.

ولِمَ لا.. وقد عمِلت بمُراد اللهِ تعالى منها، وامتثلتْ لتعاليمِه، ففي المقابلِ هي واثقةٌ بحفظ اللهِ تعالى لها، كما وعَدها بـ﴿ Ÿ Uسو ÿ ll﴾، و﴿ Ÿ ßiZ Ulo ßiZ Glp Ÿ ßhZ Ö﴾، تتعبدُ للهِ تعالى بمقتضى أسمائِه وصفاتِه، فهو "الحفيظُ" الذي حفظ أولياءَه في الدنيا والآخرةِ ونجّاهم من كل أمرٍ خطير، "المؤمنُ" الذي أمَّن أولياءَه من خزي الدنيا ووقاهُم في الآخرةِ عذابَ الهاوية، "الوليُّ" للمؤمنين فلا غالبَ لمن تولاه.

وتتعبدُ له باتباعِ أوامِره واجتنابِ نواهيه، موقنةً بخيريَّة هذه التعاليمِ على كل تعاليمِ الأرضِ ومنظوماتِ البشر، ودساتيرِهم، وقوانينِهم.

فأنَّى لمثل من تكونُ هذا حالُها أن تشعرَ بالخوفِ والقلقِ وعدم الأمان؟! وهي تنعمُ بولايةِ خالِقِها لها، ومعيتِه أينما حلتْ وارتحلت،

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[آل عمران:١٠١]

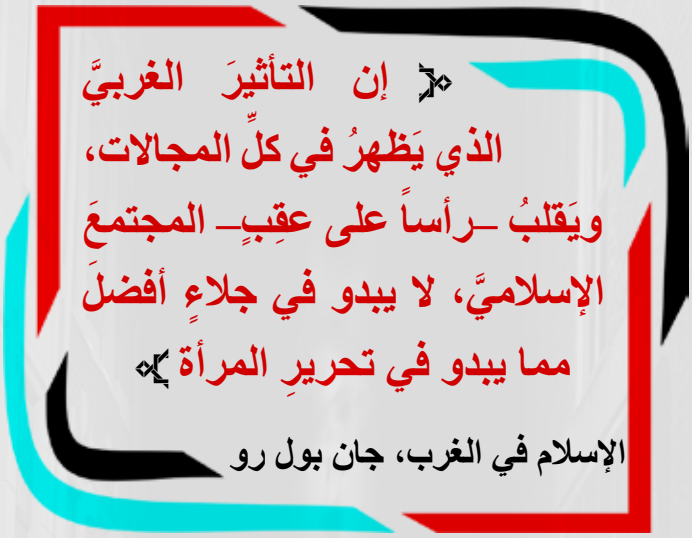

ها هو الفرقُ بين (المنظومةِ العلمانيَّةِ الغربيَّةِ التحرريَّة) و(المنظومةِ الإسلاميَّة)، فرقٌ بين الثرى والثريا، بين الظلماتِ والنور، والظلِّ والحَرور، بين الشقاءِ والسعادة، بين الخوفِ والأمن، بين فقرٍ مُدقعٍ تستقي (المنظومةُ العلمانيَّةُ التحرريَّة) تعاليمَها ووعودَها منه، وكنزٍ غنيٍّ وافرٍ تستقي (المنظومةُ الإسلاميَّة) تعاليمَها منه.

إن عدمَ توقُّعِ المشروعِ العلمانيِّ لنتائجِ هذه المنظومةِ وثمارِها المُرةِ الخبيثةِ قبل أن تحدث؛ لهي صفعةٌ ذاتيةٌ قويةٌ في وجهه، ودليلٌ بليغٌ على فشلِه وسذاجتِه، وعدمِ صلاحيتِه لأنْ يُعتبرَ نظامًا مؤهلًا لقيادةِ الحياةِ والمجتمعِ نحو التقدمِ والتنميةِ في الماضي والحاضرِ والمستقبل .. أما إن كان قد توقَّعَ هذه النتائجَ من قبل، وسكت عنها، ولم يُحذِّر منها وهو شاهد، فهو حينئذٍ متهَمٌ بالخيانةِ الكبرى والعمالةِ لغير صالحِ الوطن.

الهامش:

[١] (المرأةُ الجديدة): إشارةٌ إلى كتاب قاسم أمين المشهور، ويرمز المصطلح في هذا المقال إلى "المرأة المتحررة" باعتبارها نسقًا وكيانا نادى به دعاة "تحرير المرأة" في المجتمع، ويرمز أيضًا إلى المرأة ذاتها التي انساقت لهذا النسق سواءً برضاها، أو جهلاً منها.

[٢] (المنظومة التحرريَّة): ترمزُ في المقال إلى نظامِ ومنهج الحياة الذي أراده التوجهُ الليبراليُّ أو العلمانيُّ الغربيُّ ودعاةُ "تحريرِ المرأة" للمرأةِ وللمجتمع كله، فأضحت المرأةُ داخلَها متأثرةً بعدة عواملَ مجتمعةٍ فرضتها أجندةُ "المنظومةِ التحررية"، وكذلك أضحى المجتمعُ متأثرًا بعدةِ عواملَ فرضتها هذه المنظومة.

[٣] (شارعٌ آمنٌ للجميع): حملةٌ أطلقها المركزُ المصري لحقوق المرأة ECWR بالقاهرة، بدأت عام ٢٠٠٥ لمحاربة ظاهرة التحرش بالمرأة)!

http://ecwronline.org/index.php?option=com_content&task=view&id=١٢٢&Item

[٤] مثالٌ لهذا التغير: (التحولُ نحو النموذج الرأسمالي، وما تبعه من تحولاتٍ قيَميةٍ، منها سيادةُ قِيَمِ المادةِ والربحِ والفردية، وهى القِيَمُ التى تجعلُ إمكانيةَ انتهاكِ الآخرينَ والتعدي عليهم أكبر) خالد عبد الرسول، جرائمُ الاغتصاب وهتكِ العِرض فى مصر، أحوالٌ مصرية، العدد ٢٥، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، صيف ٢٠٠٤م، ص ٥٨.

[٥] « إن قضيةَ التحرشِ لم تظهر فجأةً، بل هي قضيةٌ تراكميةٌ لها جذورٌ عميقةٌ بدأت منذ بداية الانفتاحِ الاقتصاديِّ وما صاحبَه من انحلالٍ أخلاقيٍّ وانهيارٍ للقيم، وإن هذه النتيجةَ كانت متوقعةً حين أخذ السوسُ ينخرُ في البنيةِ الأخلاقيةِ للمجتمعِ التي تُمثل حائطَ الصدِّ أمام القيم الإباحيةِ الوافدةِ والسلوكيات الشاذة؛ فبدا أن الإعلامَ الفاسدَ والفنَّ الهابطَ مرْضيٌّ عنه ولا يجدُ من يوقفُه أو يتصدى له » د.أماني أبو الفضل، المديرةُ التنفيذية للمركز المصري لرصدِ أولوياتِ المرأة (مرام)، المصدر: موقع إسلام أون لاين.

http://www.islamonline.net/arabic/Cyber_Counselor/bigHouse/٠٢/٠١/٢٠٠٧.shtml

[٦] الأبعادُ الاجتماعيةُ للتحرش الجنسي في الحياة اليومية، دراسة ميدانية على الشبكة، (ص ٢١)، بتصرف.

[٧] « ينبغي ألا نلقي باللوم على الخطاب الإسلامي؛ لأن الدعاةَ يقومون بدورِهم، ولكنَّ الإعلامَ الهابطَ يجعلُ هذا الخطابَ بلا مردودٍ إيجابيٍّ بسبب قوةِ ما يملكُه من وسائلِ التأثيرِ، ومطاردتِه للناس طوالَ ساعات اليوم ». د. أماني أبو الفضل، المديرةُ التنفيذية للمركز المصري لرصد أولويات المرأة (مرام)، المصدر: موقع إسلام أون لاين.

http://www.islamonline.net/arabic/Cyber_Counselor/bigHouse/٠٢/٠١/٢٠٠٧.shtml

[٨] « الإعلام بوسائلِه المختلفةِ المقروءةِ والمسموعةِ والمرئيةِ يلعب دورًا مؤثرًا في نفوس مشاهديه؛ حيث يُكسبهم توجيهاتٍ معينةٍ لا تلبثُ أن تصبحَ قوالبَ موجِّهةً لسلوكياتِهم، إنه يعملُ على ترسيخِ بذورٍ ثقافيةٍ وقيمٍ بديلة، ذلك أن الإعلامَ المرئيَّ أباح ولا يزالُ يبيحُ لنفسِه (باسم الجانب الترويحيِّ من رسالته وبفعل الجانبِ الاقتصاديِّ من نشاطه) السخريةَ من الكثير من المقدسات الاجتماعية، وقد جاءت معظمُ هذه السخريةُ شديدةَ الفجاجةِ بما يتناسبُ مع فجاجةُ الذوقِ في الكثيرِ من الأعمال التمثيلية لدينا، ومِن ثَمَّ فقد أسهمت ولا تزالُ تُسهم بقوةٍ في مزيدٍ من إفسادِ مناخ التنشئةِ الاجتماعية لدينا بصورةٍ عامة، هذا بالإضافة إلى الإعلاناتِ وما تَعرض من ثقافاتٍ بديلةٍ للقيم الأخلاقية الثابتة، وأمامَ هذا الوابلِ من الغناءِ المعنوي الفاسدِ اللاأخلاقي يُصبح من المحال على النفوس ألا

تمرض» أحمد مجدى حجازي، أزمة القيم، مجلة الديمقراطية، العدد التاسع، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، يناير ٢٠٠٣م، ص ٥٨.

[٩] عولمةُ الإباحية.. « تُلفت د. منال أبو الحسن -المسئولةُ الإعلامية باللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل، ومُدرسة الإعلام بجامعة الأزهر- الانتباهَ إلى هذا العامل المهم: وهو محاولاتُ الأمم المتحدة عولمةَ القضايا الجنسية. حيث غلَّفتْ كلَّ ما يخصُ هذه القضايا بإطارٍ من الحرية والتمكين وأصبح من متطلباتِ العولمة فرضُ تلك الأجندةِ التي هي في الأصل منظومةُ الغربِ الإباحية من خلال مواثيقِ الأمم المتحدةِ الخاصةِ بالمرأة والطفل.
وتضيفُ أن المنظمةَ الدولية تقوم بإلزام الدولِ الأعضاءِ بتنفيذ بنودِ تلك المواثيقِ وتطبيقِها على مستوى كافةِ مؤسسات هذه الدول دون اعتبارٍ للدين ولا للقيم المجتمعية، والتي تمثلُ من وجهةِ نظرِهم العائقَ الأساسَ للتطبيق، مشيرةً إلى أن هذه المواثيقَ تُركزُ على المطالبة بتغيير المناهجِ الدراسيةِ للأطفال والمراهقين لتلبيةِ هذه المتطلبات..
وتؤكدُ على أن بعض وسائلِ الإعلامِ العربيةِ الموالية للمنظماتِ الغربية تقوم بدورٍ أساسٍ في إيجاد حالةٍ من الإلحاحِ والضجيجِ لشد الجمهورِ نحو الأساليبِ الغربية للمعالجات الجنسية، سواءً من النواحي الثقافيةِ أو التعليمية أو القانونية أو السياسيةِ لكي يتبعَها المناقشاتُ والحواراتُ الثنائيةُ والجماعيةُ لإيجاد رأيٍ عامٍّ داعمٍ لتلك المنظومة الإباحية » المصدر: موقع إسلام أون لاين.
http://www.islamonline.net/arabic/Cyber_Counselor/bigHouse/٠٢/٠١/٢٠٠٧.shtml

[١٠] « إن هذا السلوكَ المنحرفَ يتصفُ بعدم الانضباطِ، وينقلُنا مفهومُ الانضباط وعدمُ الانضباط إلى مفهومين آخرين ارتبطا بهذا السلوكِ وهما مفهوما الانحراف وعدمُ الامتثال... ويظهرُ مفهومُ عدمِ الامتثال من خلال نظرية "ميرتون Merton" فى مجال البناءِ الاجتماعيِّ و"الأنوميِّ"، والتصنيفِ الذى قدمه "بارسونز Parsons" فى وصفه لميكانيزم الضبط الاجتماعي فى مواجهة الميول الانحرافية وإعادةِ التوازن إلى المجتمع، حيث أكد بارسونز على أن التنشئةَ الاجتماعيةَ من خلال الأسرةِ لا تستطيعُ وحدَها أن تتغلبَ على التوترِ والانحرافِ فى العلاقات الأمرُ الذي يؤدي إلى ظهور بعضِ العناصر السلبيةِ فى البناءِ الدافعي تؤدي بدورها إلى الانحراف عن المعايير القائمةِ، ولا بد أن يواجهَ النسقُ هذه الأنماطَ الإنحرافيةَ بعملية الضبطِ الاجتماعي، وتصبحُ درجةُ الامتثال واحدةً من الدرجات التي توضحُ عودةَ النسق إلى التوازنِ ويصبحُ الانحرافُ هو عدم الامتثالِ للقواعد الضابطةِ للنسق ». أحمد زايد وآخرون، العنف بين طلاب المدارس، التقرير الاجتماعي الأول، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٢١، بتصرف.

[١١] الإسلام في الغرب، جان بول رو (ص ١٧٨).

[١٢] قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية – د.فؤاد بن عبدالكريم، (ص ٥٤).

[١٣] « لما وقعت فتنةُ الاختلاطِ بالجامعة المصرية، كان ما كان من حوادث يندى لها الجبين، ولما سُئِل "طه حسين" عن رأيه في هذا، قال: (لا بد من ضحايا)!! ولكنه لم يبين : "بماذا" تكون التضحية؟ وفي "سبيل ماذا" لا بد من ضحايا؟! ». (المرأة المسلمة) لوهبي غاوجي الألباني (ص٢٤١). « وأيُّ ثمرةٍ يمكن أن تكون أغلى وأثمنَ من أعراض المسلمين؟!! »/ نقلاً عن: د. محمد إسماعيل المقدم، عودة الحجاب، مجلد "أدلة الحجاب" (ص ٦٥).

[١٤] العجيبُ أنني بعد أن كتبتُ هذه الكلمات قرأتُ خبرًا يفيد أن شيئًا من هذا حدث بالفعل أمام إحدى مدارس البنات التي كانت تشتكي من هذه الظاهرة فتم تعيينُ حرسٍ أمام المدرسة لحماية الطالبات، فما كان من حال هؤلاءِ الحراس مع الطالبات إلا ما ذكرت!

[١٥] قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية – د.فؤاد بن عبدالكريم، (ص ٥٥).

[١٦] العفة: حصول حالةٍ للنفس تمتنعُ بها عن غلبة الشهوة، والمتعففُ: المتعاطي لذلك بضربٍ من الممارسةِ والقهر، انظر: "المفردات" للراغب (ص٥٠٧).

[١٧] الكلام في تفسير الآية: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾، هو من مجموع كلام العلماء، بتصرف يسير.

[١٨] العلامة أبو الأعلى المودودي – رحمه الله – تفسير سورة الأحزاب (ص١٦٥-١٦٧) بتصرف.

[١٩] دراسة أجراها المركز المصري لحقوق المرأة بعنوان "غيوم في سماء مصر"!
http://ecwronline.org/index.php?option=com_content&task=view&id=٢٧٣&Item
http://ecwronline.org/index.php?option=com_content&task=view&id=٢٧٤&Item

[٢٠] أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي في الكبرى، وغيرهم، وقال الترمذي: (حديث حسن غريب)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب"، وفي تحقيقه "الكلم الطيب" لابن تيمية.

[٢١] أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وغيرهم، وصححه الألباني في تحقيقه "الكلم الطيب"، وانظر: "السلسلة الصحيحة" (٣١٦٣)

[٢٢] حسنه الحافظ ابن حجر، وصححه الحاكم، والذهبي، وابن حبان، والنووي، والألباني، ومحققا "الزاد". (أذكار وآداب الصباح والمساء، الشيخ محمد إسماعيل المقدم، ص١٢).

[٢٣] يقول الشيخ أبو بكر الجزائري – حفظه الله - : الجلباب هو ما تضعه المرأة على رأسها، فكيف يقال لها: "أدنِ الجلباب من رأسك"وهو يغطيه؟! – يريد أنه يكون حينئذٍ تحصيل حاصل – وإنما تدنيه من رأسها لتغطي به وجهها، هذا هو المعقول والمفهوم من كلام العرب، ثم مجرد تغطية الرأس لا تمنع من المغازلة المخوفة!.. وإنما يمنع منها تغطيةُ الوجه بالمرة، أما كاشفةُ الوجه فإن النظرَ إليها ومنها يُسَهِّلُ المكالمةَ فالمغازلة، كما قال الشاعر الحكيم: نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ .. فكلامٌ فموعدٌ فلقاء، فصل الخطاب في المرأة والحجاب، (ص: ٣٨-٣٩)/ نقلاً عن: د. محمد إسماعيل المقدم، عودة الحجاب، مجلد "أدلة الحجاب" (ص٢٢٤)، بتصرف يسير.

[٢٤] د. محمد إسماعيل المقدم، عودة الحجاب، مجلد "أدلة الحجاب" (ص ٦٥).

[٢٥] المصدر السابق، (ص١٣١)

[٢٦] د. محمد البرزنجي، مدلولات الأمن الإسلامي في القرآن الكريم، مجلة البيان، العدد: ١٢٤

[٢٧] تفسير العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، سورة الأنعام، (ص ٢٤١).

[٢٨] د. محمد البرزنجي، مدلولات الأمن الإسلامي في القرآن الكريم، مجلة البيان، العدد: ١٢٤، بتصرف.

المراجع:

- عودة الحجاب، د. محمد إسماعيل المقدم.
- الأبعاد الاجتماعية للتحرش الجنسي في الحياة اليومية، دراسة ميدانية على الشبكة.
- قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية – د.فؤاد بن عبدالكريم.
- مقالات ودراسات متفرقة على الشبكة.

من أقوال ابن المبارك

- اترك فضول النظر توفق للخشوع، اترك فضول الكلام توفق للحكمة.
- رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية.
- ليس للمؤمن في الدنيا دولة وإنما دولته في الآخرة.
- إياك أن تجلس مع صاحب بدعة، ليكن مجلسك مع المساكين.
- عجبت لمن يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة.
- كاد الأدب يكون ثلثي الدين.
- الزاهد هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح وإن فاتته لم يحزن.

قال ابن تيمية

سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد:

- مفسدة الافتقار إلى غير الله وهذا نوع من الشرك
- مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق
- وفيه ذل لغير الله ، وهو ظلم للنفس

فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة

مجموع الفتاوى (١ / ١٩٠)

الخلفية الفكرية لملاحدة الإنترنت

حوار موحد وملحد

بقلم أبي الفداء

الملحد: ألست تؤمن بأن الله خيّر وأنه لا حدود لقدرته؟

المسلم: بلى، ولا شك لدي في ذلك!

الملحد: حسنا.. لنفترض أنّ شخصا مريضا دخل إلى هنا، وكان بإمكانك معالجته، فهل ستساعده؟

المسلم: نعم سأفعل، طاعةً لله تعالى.

الملحد: أنت رجل خيّر إذن، لا تمتنع عن فعل الخير متى أمكنك فعله!، أما إلهك فليس كذلك! أليس هو الذي أمرضه أولا؟!

المسلم: الله كما أمرضه فقد شفاه أيضا، وأعانني على مساعدته، وإمراضه له لا يجعل وجوده شرا من كل جانب!

الملحد: كيف هذا؟! أليس المرض شرا؟

المسلم: وجوده قد يكون شرًا من جانب، وخيرا من جوانب أخرى كثيرة، فإن الشر في الموجودات نسبي، فلا يكون المخلوق شرا من كل وجه، وإنما لا بد أن يكون له خير يترتب على وجوده وخلقه من أحد الوجوه.

الملحد: كيف يكون ذلك في المريض؟!

المسلم: إن المرض قد يكون بالنسبة للمريض شرا لتأذيه منه ومنعه له من الحركة والعمل، ولكنه خيرٌ له من جوانب كثيرة، فإن من المرض ما يكسب صاحبه بعده مناعة يحتاجها، أو يكون مرضه ليس إلا مرحلة لمقاومة جسده للفيروسات حتى ينتصر عليها، ومرض المؤمن زيادة في أجره ومغفرة لذنوبه، كما أن مرض العاصي والظالم خير لهما وللناس.

ألا ترى أنه إذا قَبض أحد على مجرم سفاح قاتل كان قابضُه في حكم العقل والعرف بطلا شريفا؟ وإذا حكم القاضي بقتل ذلك المجرم كان حكمه عدلا وإنصافا؟! فمع أن عقوبةَ الظالم شرٌ بالنسبة له، إلا أنها خير لما يترتب عليها من العدل.

وليس كل من يفعل الخير فيما يظهر للناس يكون خيِّرا، فقد يساعد خبيثٌ أحدَ العميان على عبور الطريق، ليسرق نقوده!! فيكون بمساعدته له قد فعل خيرا فيما يظهر للناس، ولكن هل يوصف بأنه خيِّر؟! كلا! لأنه كان هناك جانب من الشر والنية الخبيثة في عمله.

الملحد: فهل يكون المرض شرا وخيرا لكل أحد؟!

المسلم: إن المريض إذا صبر واحتسب وأحسن ظنه بربه على شدة ما يلاقي، غفر له ذنبه، وارتفعت درجته وفاز في الآخرة وعلا أجره! وكانت أذية المرض له شرا قليلا أمام الخير الكثير الذي حصل له، وأما من جزع وقنط من رحمة ربه وساء ظنه بالله فقد خسر! وكان مرضه شرا له، وكان الخير في منع المرض له عن كثير من الفساد والمعاصي، وهذا خير له أيضا وللناس.

الملحد: إنك بهذا تدعي أنَّ إلهك خلق الشر في الأرض من أجل الخير؟! فأخبرني ما هو هذا الخير الناتج عن الشر؟!

المسلم: إن الحكمة التي من أجلها خلقت الدنيا وما فيها، اقتضت أن يكون فيها الخير والشر والصلاح والفساد اختبارا وابتلاء للناس، يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾، فكل ما يصيبنا فيها امتحان، حتى نحاسب على اختياراتنا وما نحن فاعلون! وكذلك الخير والشر الذي يصيبنا في الدنيا امتحان لنا، وهذا الامتحان يترتب عليه خير عظيم وهو العدل مع المسيئين، والفضل على المحسنين.

الملحد: -مقاطعا-: إن مجرد وجود الشر والمرض دليل على أن الرب غير قادر على جعل الحياة الدنيا جنة تخلو من الشر، أو أنَّه شرير يريد أن تكون الدنيا مكانا للشر يخلو من الخير!

المسلم: إن هذا الاستدلال باطل لما فيه من المغالطة، ولأنه مبني على فهم فاسد للغاية التي من أجلها خلقت الدنيا! فلو أرادها خالقها جنة ينعم الناس فيها ويرفهون لجعلها كذلك، ولو أرادها جحيما يعذبون فيه ويهلكون لجعلها كذلك، ولكنه أرادها دار ابتلاء واختبار، وهي ليست خالية من الخير كما تقول.

الملحد: فلم حين خلق الخير والشر جعل الشر يغلب الخير في مرات كثيرة؟

المسلم: إن الخير والشر يتصارعان في هذه الدنيا بين مخلوقات اختارت الخيار الصائب، وأخرى ضلت وانحرفت، وما كان خلق هؤلاء في الدنيا إلا ليُبتلى كل فريق منهم بالآخر، ويمتحن في اختياره ويحاسب عليه! إنه صراع كان ولا يزال في جميع العصور.. وهذا الصراع مما يحقق الغاية من خلق الحياة الدنيا نفسها على هذا النحو، وهو من ابتلاء المكلفين فيها وامتحانهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ويقول جلَّ وعلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإن الخير هو الغالب في الحقيقة على كل شر، لأن الشر نفسه لا بد له من جوانب يظهر فيها الخير من وجوده كما سبق آنفا.

الملحد: أخبرني إذن كيف يخلق الله الشر أمام الناس ثم يعاقبهم على الوقوع فيه؟!

المسلم: إن الله لا يعاقبهم إلا على اختيارهم لما يعارض الحجة القائمة عليهم.

ألا ترى أننا لا نعرف جودة الآلة المصنوعة بدون علمنا بالغاية من صنعِها؟ فكذلك من بلغه مراد الله وعمل به كوفئ ومن بلغه ولم يعمل به حوسب، ومن لم يبلغه كان له امتحانه الخاص في يوم الحساب حتى يتساوى الخلق جميعا في عدالة خالقهم التامة، وفي الغاية من خلق الدنيا التي منها الامتحان والابتلاء بالعمل، فلا يترك محسنا إلا كافأه، ولا مسيئا إلا جازاه بإساءته، وهذا خير.

أما إذا ترك الصانع صنعته دون أن يعلم الناس بالفائدة مما صنعه لهم فإنه يكون كتمانه ذلك قبيحا مكروها! والرب سبحانه منزه عن ذلك! ولا يُعقل أن ربا حكيما كاملا متصفا بصفات الكمال كلها، يصنع صنعة تتخلف عن الغاية التي من أجلها صنعت!!

ومعيار حكمنا على صنعة الخلق في الدنيا ليس كوننا منعمين فيها كما نهوى أم لا!

وإنما هو مدى كونها صالحة للقيام بغاية الامتحان والابتلاء التي خلقها الله من أجلها، فإذا كانت غاية الكمال في إتقان صنعة أن تعمل تلك الصنعة عملا محكما دقيقا من أجل الغاية التي صنعت من أجلها، فإننا حينئذ نفهم أن الدنيا تحقق الغاية التي خلقت لها بوجود ما فيها من الخير والشر والمرض والألم والكوارث والعلل وغير ذلك مما تراه ولا تفهم له تفسيرا بعيدا عن الحكمة والدين!!

فحاول أيها الزميل ما شئت أن تأتي بجواب شاف محكم يربط الدنيا بما بعدها والحياة بالموت والخير بالشر، ويضع كل الأسئلة في منظومة واحدة لها جواب واحد، حاول ذلك بعقلك في معزل عن هدى الدين الحق كما تريد، ثم تعال لنتناقش فيما جئت به، ولن تجد الجواب الصحيح في غير الدين الحق.

وعند هذا حار الملحد عن أن يأتي بالجواب الجامع لكل ذلك، فلم يسعفه بعده عن الإيمان بالله والدين الحق إلا بالحيرة والتردد، وبقي المسلم يطالبه بالجواب وهو لا يحير جوابا.

فطرة الله التي فطر الناس عليها

بقلم د. حسام الدين حامد

جلس الكاتب إلى أوراقه، والأفكار تملأ عليه نفسه، لا يدري من أين يبدأ وكيف يسير، وظل على تلك الحال حينًا، حتى بلغ حدَّ الحيرة بل أوغل فيها، فترك مقعده ومضى في الغرفة جيئةً وذهابًا، تتداعى عليه الأفكار دفعةً واحدةً فلا يدري أيتها يأخذ، ثم تذهب عنه جملةً واحدةً فلا يدري ما يكتب، وكأنه صراعٌ قام في نفسه أتاه من نفسه، صراعٌ أنهاه رضيعٌ يدفع الباب ليدلف إلى الغرفة، ويحبو حتى يستقر عند قدميه، ويرفع الرضيع رأسه وينظر إلى أبيه ويضحك، وما لبث إلا قليلًا حتى خرج من الغرفة وكأنه لم يجد فيها بغيته، وحينئذٍ عرف الكاتب من أين سيبدأ مقاله، فأمسك القلم وكتب مقاله عن (الفطـــرة) فكان هكذا:

لقد عُلِم أنّ كلَّ مولودٍ يُولد وليس له من العلم شيء، كما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[١]، وهذا وصفٌ أقرَّ به الجميع ولم ينازع فيه أحد، فماذا لو قدَّر الله على المولود أن يظل عُمُرَه هكذا لا يعلم شيئًا ؟! إذن لما استطاع آدميٌّ أن ينفعه، ولا تمكن أحدٌ من أن يسعفه، لأن الخروج عن هذه الحال يستلزم وجود الحواس وعملها، فكيف يستطيع إنسانٌ فِعلَ ذلك وقد عجزت البشرية عن فهم كنه الحواس فهمًا تامًا ؟! أليست حال ابن آدم – من يوم مولده – علامة على افتقار العالمين إلى الخالق عز وجل؟!

وأقر الجميع ولم ينازع أحدٌ في أن ردود الفعل هذه لم يتعلمها المولود ولم يكتسبها بالخبرة، فما مصدر هذه الأفعال التي كانت بغير تعلم ؟! كيف ومِن أين أتى المولود بهذه الأفعال وهو الذي لا يعلم شيئًا ؟!

ومع ذلك نجد في المولود ما عرفه الأطباء باسم Neonatal reflexes، وهي ردود فعلٍ لاإرادية تُلاحظ منذ الولادة، بل إن بعضها يبدأ في الجنين وهو في الرحم، وتستمر معه بعد ولادته حتى حين، ومن هذه الأفعال غير الإرادية – مثلًا – ما يساعد المولود في الرضاعة مثل Sucking reflex & Rooting Reflex، ومنها ما يساعد على حماية المولود مثل Blink reflex وغيره، وتفيد الملاحظة الطبية لتلك الأفعال غير الإرادية في تقييم حالة الجهاز العصبي للجنين، وأقر الجميع ولم ينازع أحدٌ في أن ردود الفعل هذه لم يتعلمها المولود ولم يكتسبها بالخبرة[٢]، فما مصدر هذه الأفعال التي كانت بغير تعلم ؟! كيف ومِن أين أتى المولود بهذه الأفعال وهو الذي لا يعلم شيئًا ؟!

لقد لاحظ أحد العلماء مثل هذه الأفعال في الطير؛ فقال ﴿ وإن لم يكن هناك شعور، وإنما هو انسياقٌ إلى تلك الأفعال مع الجهل بما يترتب عليها فتلك هي الهداية الفطرية ﴾[٣]، ثم تساءل رحمه الله ﴿ فإذا أحاطت العناية الربانية الطير والبهائم والحشرات إلى تلك الدرجة، وحاطت الإنسان أيضًا في حفظ حياته وبقاء نسله وغير ذلك، فما عسى أن يكون حالها في حياطة الإنسان فيما إنما خُلق لأجله؟! ﴾[٤].

ويبدأ المولود رحلته في الدنيا، ويأخذ في تحصيل العلوم والمعارف الأولية، وآلته في هذا التحصيل نعمةٌ من الله تستوجب الشكر، إنها نعمة الحواس التي وهبنا الله إياها من غير طلب، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥]، ومن خلال الحواس يحصِّل الإنسان المعارف بكيفية ثابتة في كل البشر، كيفيةٍ معقدةٍ غاية التعقيد، كيفية ما زالت العلوم البشرية تسعى في فك شفرتها ولمّا تنته بعدُ، أقر الجميع بهذا ولم ينازع في ذلك أحد، فمن الذي وضع

هذه الكيفية الثابتة المعقدة في مولودٍ لا يعلم شيئًا ولم يتعلم بعدُ؟!!

﴿ وإن لم يكن هناك شعور، وإنما هو انسياقٌ إلى تلك الأفعال مع الجهل بما يترتب عليها فتلك هي الهداية الفطرية ﴾

ثم إننا نرى أثر تحصيل العلوم والبدهيات الأولية ظاهرًا على الرضيع، فنراه يعلم أنه يحتاج فتح الباب ليدخل غرفة، ويعلم أنه لا يستطيع المرور من خلال مادة الباب، ويضحك معبرًا عما في نفسه من الفرح والسرور، ويعلم أن الشخص الواحد لا يتواجد في مكانين في آنٍ واحد، ويعلم أن بحثَه عن بغيته يستوجب منه سعيًا، وهذه المعارف لا يستطيع آدميّ أن يمنع حدوثها، ولذا لما قال شخص (فليستحدث لنفسه فطرةً أخرى!!) رد عليه شيخ الإسلام رحمه الله قائلًا ﴿ أتريد أن تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة؟! فهذا غير مقدور للبشر، فإن الله فطر عباده عليها ﴾[٦]، فلما كانت تلك المعارف لازمةً من أصل خلقة الإنسان كانت من فطرة الإنسان.

وتتراكم البدهيات والمعارف الفطرية، ويوجب تركيب هذه البدهيات والمعارف جميعَ العلوم، ﴿ وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المُعارِض ﴾[٧] ، وعندما تسلم الفطرة من مُعارضة الهوى أو التقليد أو التضليل أو الآفات العقلية فإن الإنسان سيختار ما يوافق الفطرة، ولن يحيد عما توجبه له فطرته من المعتقدات والعلوم والأعمال، ولذا كان تأويل اللبن في المنام ﴿ بالفطرة لما في كلٍّ منهما من التغذية المُوجِبة للحياة وكمال النشأة، وأن الطفل إذا خُلِّيَ وفطرتَه لم يعدل عن اللبن، فهو مفطورٌ على إيثاره على ما سواه ﴾[٨]، ولما كان اختيارُ النبي ﷺ اللبن ليلة المعراج اختيارًا لما ألفه وعرف فوائده، فقد قال له جبريل عليه السلام ﴿ ... ﴾[٩]، أما وقد علمنا أن الإنسان لو خلي وفطرته وسلم عن المُعارِض فإنه سيختار ما يناسب ما استلزمته خلقته من معارفَ فطرية، وقد آن طرح هذا السؤال: فما الذي يناسب تلك المعارف الفطرية فيختاره الإنسان ذو الفطرة السليمة؟!

﴿ أتريد أن تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة؟! فهذا غير مقدور للبشر، فإن الله فطر عباده عليها ﴾

وقبل البحث في جواب هذا السؤال لابد من التأكيد على أمرٍ أكيد! هو أنّ الانطلاق من بدهيات العقول وتأسيس العلوم عليها ديدنُ العلماء، فقضايا الضرورة والبديهة قد ﴿ اتفق علماء المعقول أنها رأس مال العقل، وأن النظر إنما يُرجى منه حصول المقصود ببنائه عليها وإسناده إليها ﴾[١٠]، وأنّ كلّ علمٍ ليس له مستندٌ من البديهة والضرورة فهو معدودٌ في الافتراضات أو الظنون، وأن ما قرُبَ من الضروريات كان أيسر في التحصيل مما بعُدَ مدرَكه عنها، وأنه لم ينكر قضايا البديهة أو يشكك فيها غير السفسطائيين، وكفى بوصف المرء بالسفسطة إطّراحًا لقوله وطعنًا في عقله، ولذا فلا عبرة بمن ينكر بدهيات العقول اعتمادًا على ظنونه وأوهامه، ويشكك في وجود الشمس لاحتمالية شيءٍ عنَّ له في سماديره.

> ولا تقبلُ فطرةٌ صحيحةٌ بربٍّ يُقتل أو يُصلب، ولا ترضى أن تصفه بأنه يَظلِمُ أو يَكْذِب، ولا تقبل بمعبودٍ يَخَافُ أو يَتْعَب !

والآن نعود للسؤال: ما الذي يناسب تلك المعارف الفطرية فيختاره الإنسان ذو الفطرة السليمة؟!

﴿ قال بعض العقلاء: إنّ من لطم على وجه صبيٍّ لطمةً فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار، لأن الصبيَّ العاقلَ إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني؟! وما ذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعلٍ فعلها، ولأجل مختارٍ أدخلها في الوجود، فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأنْ تشهدَ بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى. وأما دلالتها على وجوب التكليف، فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول: لم ضربني ذلك الضارب؟! وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الإنسانية داخلةٌ تحت الأمر والنهي، ومندرجةٌ تحت التكليف، وأن الإنسان ما خُلِق حتى يفعل أيَّ فعلٍ شاء واشتهى. وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة، وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه، فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى. وأما دلالتها على وجوب النبوة فلأنهم يحتاجون إلى إنسانٍ يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي، ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدّر هذه الأمور، ويبين لهم هذه الأحكام، فثبت أن فطرة العقل حاكمةٌ بأن الإنسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة ﴾[١١].

والفطرة التي دلت على وجوب وجود الخالق، واستشرفت إلى التكليف ودار الجزاء، واستشعرت حاجتها إلى إرسال الرسل والأنبياء، هذه الفطرةُ عينُها شاهدةٌ بأن لله تعالى كلَّ صفات الجمال والجلال والكمال، هذه الفطرة تنادي "الله أكبر! الله أكبر!"، نداءً سمعه النبي ﷺ من رجلٍ فقال له ﴿ ﷺ ﴾[١٢]، هذه الفطرة توجب اليقين بأنه سبحانه غنيٌّ عن خلقه، متفردٌ في ملكه، له العلمُ التامُّ والإرادةُ النافذة، وهو القاهر فوق عباده، وهو القوي المتين، الحكيم العزيز، العليم القدير، متنزهٌ عند ذوي الفطر السليمة عن الحلول والاتحاد، وعن أنْ تأخذَه سنةٌ أو نوم، ولا تقبلُ فطرةٌ صحيحةٌ بربٍّ يُقتل أو يُصلب، ولا ترضى أن تصفه بأنه يَظلِمُ أو يَكْذِب، ولا

تقبل بمعبودٍ يَخَافُ أو يَتْعَب!

وهذه الفطرة – بعد ذلك - تجزم بالفرق بين الصادق والكاذب، وأن جميع ما يأتي به الصادق لا يشتبه بما يأتي به الكاذب، فمن أتى بالدعوة إلى الخُلُق العَظِيم والهدي القويم - لا يتخلف عن ذلك مرة - فهو داعيةٌ إلى الخير بلا ريب، و﴿في فطرة كلِّ ذي فطرةٍ صحيحةٍ تصديقُ من أتى بمثل الذي أتى به محمدٌ ﷺ من الآيات البينات التي وُصفت من غير تَعَلُّمٍ تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي﴾[١٣]، وهي حاكمةٌ بأن من تواترت الأخبار بصدقه، وتعددت الشواهد بتحقق السعادة لمن استقام على شريعته، وتضافرت البراهين على عزة وغلبة من التزم بسنته، وعجز الناس أجمعين عن الإتيان بمثل ما أتى به، فإن الفطرة شاهدةٌ بأن من هذا شأنه لا يكون كاذبًا دجالاً، بل هو آتٍ بخارجٍ عن قدرة الثقلين في كل عصرٍ وآن، وهو مؤيَّدٌ منصورٌ يأتيه المدد من ربه.

﴿في فطرة كلِّ ذي فطرةٍ صحيحةٍ تصديقُ من أتى بمثل الذي أتى به محمدٌ ﷺ من الآيات البينات التي وُصفت من غير تَعَلُّمٍ تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي﴾

والفطرة التي تقر بالتوحيد والإيمان، وتسلم بنبوة خير الأنام، تجد تمامها وتقريرها وجلاءها فيما أتى به ﴿ دين الحكمة، ودين الفطرة، ودين العقل والصلاح والفلاح، إذ فيه الأحكام الأصولية والفروعية، التي تقبلها الفطر والعقول، وتنقاد لها بوازع الحق والصواب ﴾[١٤]، ذلك أن الشريعة الإسلامية شريعةٌ تراعي ما رُكز في الفطرة وسلّمت به العقول، شريعةُ إقرارِ الأخلاق الحسنة وتكميلها.. شريعةٌ فيها أن ما حاك في الصدر، وأنِفَت النفس من اطِّلاع الناس عليه فذلك هو الإثم.. شريعةٌ لا ضرر فيها ولا ضرار.. شريعةُ التكليف بالمستطاع وكلما وُجِدت المشقة وُجِد التيسير.. شريعةٌ يدور فيها الحكم مع علته وجودًا وعدمًا.. شريعةٌ لا تفرق بين متماثلين ولا تجمع بين ضدين.. شريعةٌ تراعي مصالح العباد.. شريعةٌ إن أتت بما هو كرهٌ للمكلَفين؛ فإنها تبين الحِكمَ وراء هذا التكليف، فتخشع النفوس وتطمئن القلوب.. شريعةٌ لا تكبت حاجات الإنسان ولا تطلق لها العنان، بل ترشده لما فيه صلاحه وصلاح الجماعة المسلمة، وتبين له ما فيه خيري الدنيا والآخرة.. شريعةٌ يكون فيها النص دليلًا على المشروعية إن كان مضمونه موصوفًا بأنه (من الفطرة)[١٥] .

فالإسلام –عقيدةً وشريعة - هو ﴿ دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله فإنه لعناده ﴾[١٦]، فحُقَّ بذلك أن يكون الإسلام واتباع سنة خير الأنام من الفطرة، إذ كانت الفطرة السليمة توجب الإقرار بالإيمان والإسلام واتباع السنة.

لكنَّ الفطرة السليمة قد يطرأ عليها ما يجدعها، ويقطع عليها سبيل معرفة الحق، كما قال النبي ﷺ LJÄβηk ýNj Ü⁄džönjù!ƒ LJÄηkŁjk Gdž‡ ÜNJLjG'ŁηdžŏÄD NJLjƒƨŢLjŏÄD NJLjƒþÄnjŏ ljƒÄhã5 Ül2Ơs!ƒ ŤŽ þ!Äŏ Ůę þÄ!Ädž LJdž Gnjõ5 ŤkơCGZβη DžKŁjD ƒÄŁjÄ‡k !ÞGnjŁjÄZβηk[١٧]﴾، وعندما تُجدع فطرة المرء فإنه يعتقد ما يخالف الفطرة وبدهيات العقل، فربما أنكر وجود خالقٍ لهذا الكون الفسيح، أو اعتقد بصدفةٍ تكون هي الفاعل، أو اعتقد بنظامٍ بغير مدبِّرٍ حكيم، أو اعتقد بإلهٍ يَتْرك خلقه دون هدايةٍ لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، أو اعتقد بإلهٍ يخاف من إنسانٍ إذ أكل من شجرة المعرفة[١٨]، أو ربما آمن بإلهٍ يُصلب ويُقتل، أو إلهٍ يتجسد في صورة بشرٍ أو حيوانٍ أو صنم، أو اعتقد بإلهين اثنين أو ثلاثة آلهة أو أكثر، أو اعتقد ببعثة رسولٍ لا يتعبدنا الله بطاعته واتباع سنته، أو غير ذلك من معتقدات تخالف الفطرة السليمة.

﴿ دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله فإنه لعناده ﴾

والسبيل في محاجة هؤلاء الذين جُدِعَت فطرتُهم، هو أن تعود بهم إلى ما استقرت عليه عقولهم، وتنطلق معهم من حيث كانت فطرتهم سليمةً صحيحة، ثم ترتقي معهم شيئًا فشيئًا فيما هو محل اتفاق، حتى إذا قابلك من معتقدهم شيءٌ مما يخالف البديهة نقضته لهم وبينت بطلانه، فإن كانوا يطلبون الحق فإنهم ينصاعون لجلائه وظهوره وموافقته للفطرة، وإن كانوا من أهل اللدد في الخصومة والشطط في العناد فيكفيك أنك أقمت عليهم الحجة الظاهرة.

ولعلّ ما مضى يكفي لبيان خطأ نفي شمول معنى الفطرة للإسلام والسنة، إذ تبيّن أن الفطرة تتكامل، وما تُوجبه ويلزم منها يدخل فيها، فالفطرة لا تعني الحال التي يولد عليها الإنسان فحسب، فالإنسان خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وإنما الفطرة ابتداؤها بخلق الإنسان على هيئةٍ يصل بها لمعرفة الحق، ثم يلزم عن هذه الهيئة

المعارف الأولية والبدهيات العقلية، ومن هنا يجزم الإنسان بصحة الإسلام واتباع السنة.

ولا يفوتني التنويه ببطلان فهم معنى ﴿ lƧƱs!ƒ ŤĽŽ þ!Ăŏ Ůę þĂ!Ădž LJdž Gdž ﴾ على أنه يفترض بالطفل أن ينطق بالشهادتين وفق ولادته، أو فور تمكنه من النطق !! وهذا فهمٌ واهٍ لم يكن يستدعي تنويهًا ببطلانه، لولا أنه ظهر من يفهم هذا الفهم ويستشكله أو يعلنه ليثير من خلاله الشبهات !!

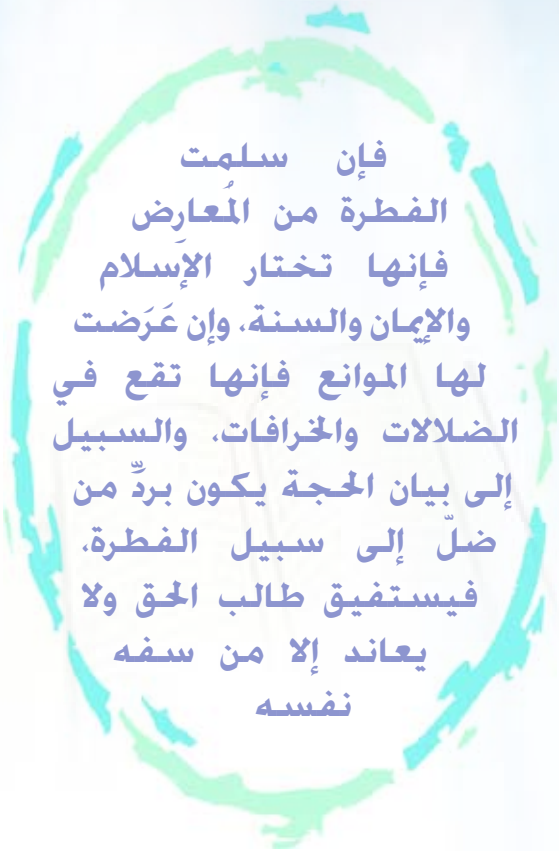

وختامًا فقد تبين أن الفطرة دالةٌ على الحق من وجوهٍ عديدة، فحال المولود علامة على افتقار العالمين إلى ربهم، وأن ما أودِعه هذا المولود من أفعال لاإراديةٍ -بغير تعلُّم- برهانٌ على عناية الله تعالى بخلقه. والذي أحاطت عنايته بني آدم إلى هذه الدرجة فإنه لا يتركهم دون عنايةٍ فيما تستشرف قلوبهم إلى معرفته، وتهفو أنفسهم إلى التنعم ببرد اليقين بشأنه، وهو سبحانه خلق في الإنسان الحواس تعمل في تحصيل العلوم والمعارف الأولية، ويظهر أثر هذا في سلوك الإنسان منذ صغره، ولا سبيل لتبديل تلك المعارف أو تغييرها أو منع حدوثها، ولا يشكك فيها إلا أهل السفسطة ولا عبرة بهم، فإن سلمت الفطرة من المُعارِض فإنها تختار الإسلام والإيمان والسنة، وإن عَرَضت لها الموانع فإنها تقع في الضلالات والخرافات، والسبيل إلى بيان الحجة يكون بردٍّ من ضلّ إلى سبيل الفطرة، فيستفيق طالب الحق ولا يعاند إلا من سفه نفسه، والحمد لله الذي هدانا لدين

الفطرة بالفطرة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونسأله تعالى أن يثبتنا عليه حتى نلقاه.

أنهى الكاتب مقاله، وقام عنه عالمًا أنه اختصر الأمر غاية الاختصار، موقنًا أن بسط القول في هذا الأمر لا يتسع له هذا المقام، قام يبحث عن ابنه الصغير عسى أن يستلهم منه جديدًا، أو يُفتح عليه – برؤيته - أبوابًا من الخير في فهم قوله تعالى :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ
الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
سورة الروم: ٣٠

الهوامش :

[١] سورة النحل: ٧٨.

[٢] يُراجع في ذلك مراجع طب الأطفال وطب حديثي الولادة.

[٣] القائد إلى تصحيح العقائد، للمعلمي، ص ٣٨.

[٤] المصدر السابق.

[٥] سورة النحل: ٧٨.

[٦] بواسطة: الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، ص ٨.

[٧] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،لابن القيم، ص ٥٥١.

[٨] إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، (٢/ ٣٢٤).

[٩] متفق عليه.

[١٠] القائد إلى تصحيح العقائد، ص ٣٨.

[١١] تفسير الرازي، عند سورة إبراهيم : ١٠.

[١٢] رواه مسلم.

[١٣] تفسير الطبري، عند سورة البقرة : ٩٩.

[١٤] الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، ط: دار ابن عمر، ص ١٥، بتصرف.

[١٥] للتفصيل في ذلك تُراجع كتب القواعد الفقهية ومقاصد الشريعة وأصول الفقه.

[١٦] تفسير السعدي، عند سورة البقرة: ٢٥٦.

[١٧] متفق عليه، واللفظ للبخاري.

[١٨] في سفر التكوين: (وقال الرب الإله: "هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفًا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد"، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن)!! (الإصحاح الثالث: ٢٢- ٢٣) .

قال ابن قيم الجوزية

وأنت إذا وازنت بين
تأويلات القدرية والجهمية
والرافضة لم تجد بينها وبين
تأويلات الملاحدة والزنادقة
من القرامطة والباطنية
وأمثالهم كبير فرق

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ٢٧١)

فليس هذا ببدع من بهت
المنجمين والملاحدة
وإفكهم وافترائهم على آدم،
وقد علموا بالمثل السائر هنا:
إذا كذبت فأبعد شاهدك

مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٤٠)

الأخلاق ليست مربحة عمليا لدى الماديين

بقلم د. السرداب "elserdap"

هل من المفيدِ عمليًا أن تكونَ عادلًا أو تقولَ الصدق؟؟

هل نستطيعُ أن نقولَ أنَّ الإسبانيين لم يربحوا من القضاءِ على الهنودِ الحُمر؟؟

أو أن المستوطنينَ البيضَ لم يستفيدوا من الإبادةِ الشاملة لسكان أمريكا الشماليةِ الأصليين؟؟

وهل يَخسرُ ماديًا الفنُّ الإباحيُّ أو الكتاباتُ الداعرة؟؟

إننا نُعرِّفُ الأخلاقَ الأصيلةَ بأنها سلوكٌ قد يكونُ ضدَّ المصلحةِ الشخصية.. فالأخلاقُ غيرُ النفعيةِ وغيرُ المصلحيةِ هي في الأساسِ غيرُ مُربحةٍ ماديًا عند الماديين.

إن الالتزامَ الأخلاقيَّ يُمثلُ قيدًا للإنسان المادِيِّ وكما قال نيتشه قديمًا: (إن قصورَ الإنسان في القوةِ ناتجٌ عن التزامِه الأخلاقي).

فالأخلاقُ غيرُ مُربحةٍ عمليًا لدى الماديين.. فأيُّ لذةٍ يجدُها الإنسانُ الماديُّ أصلًا في الزهدِ والتبتُّلِ والتعفُّفِ والتضحيةِ؟؟

إن عظمةَ العملِ البطوليِّ ليست في نجاحِهِ الدنيوي حيث أنه غالبًا ما يكونُ غيرَ مثمرٍ في العاجلة، ولا في معقوليتهِ لأنه عادةً ما يكونُ غيرَ معقول لكثير من الجبناء.. فلا بُدَّ لعظمته الحقيقية أن يكونَ وجودُ عالَمٍ آخرَ أمرًا ممكنًا. فنحنُ لا نستطيعُ أن نعتبرَ الأبطالَ المأساويينَ منهزمينَ، بل منتصرينَ. ومن الواضحِ أنهم ليسوا منتصرينَ في هذا العالَمِ الماديِّ!! فهل للوجودِ الإنسانيِّ معنىً آخر .. معنىً مختلفاً عن هذا المعنى النسبيِّ المحدود؟!

لقد وُجدت التضحيةُ والطقوسُ في جميع الأديانِ بلا استثناءٍ، وظلتْ طبيعتُها غيرَ مُبررةٍ، بل غامضةً، بل غيرَ معقولة للفكر الماديِّ .. إنها في الحقيقةِ نابعةٌ من نظامٍ آخرَ ومن عالمٍ آخر غير ماديين...إن التضحيةَ تُمثلُ ظهورَ مبدإٍ جديدٍ مناقضٍ لمبدإ المصلحةِ والمنفعةِ المعروفِ عندَ الحيوانِ البهيمي .. فالمصلحةُ والمنفعةُ حيوانيةٌ، بينما التضحيةُ إنسانية.. والمصلحةُ إحدى الأفكارِ الأساسيةِ في الرُّقيِّ الاقتصاديِّ بينما التضحيةُ هي إحدى المبادئِ الأساسيةِ في الدين .. والمصلحةُ أرضيةٌ بينما التضحيةُ سماوية ..

فلا بُد أن تكونَ للأخلاقِ قِيمةٌ، وهذه القيمةُ لا تكونُ من هذا العالم الماديِّ.. قيمةٌ لا تُقاس بالمعاييرِ الماديةِ المُجردةِ ولا تخضعُ للقوانين الطبيعية.

فالسلوكُ الأخلاقيُّ والتضحيةُ والمُثُل العليا إما أنها لا معنى لها، وإما أن لها معنىً مشروط بوجودِ الله .. فإذا لم يكن اللهُ موجودًا فلا وجودَ للإنسانية.

فمنذ اللحظةِ التي هبط فيها الإنسانُ من السماءِ لم يستطِعْ أن يختارَ أن يكون حيوانًا بريئًا -فالحيوان بريءٌ من الناحية الأخلاقيةِ بينما الإنسانُ إما خيِّرٌ أو شِرير ، فلا يوجد إنسانٌ بريءٌ من الناحيةِ الأخلاقية- لم يكن بإمكانه أن يختارَ بين أن يكونَ حيوانًا أو إنسانًا، إنما اختيارُه الوحيدُ أن يكون إنسانًا أو لا إنسان.

ولو كان الإنسانُ حيوانًا كاملًا لكانت حياتُه بسيطةً خاليةً من الأسرارِ والطقوسِ الغامضةِ والمعتقداتِ والرموزِ، ولا يَعرفُ الحيوانُ شيئًا من هذا كلِّه، وهنا يَكمنُ معنى تلك اللحظةِ التي صَنعت عصرًا جديدًا .. فإن توفيرَ حدٍّ أقصى من إشباعِ اللذاتِ هو الغايةُ القُصوى للحيوانِ، ولكنه سببُ موتِ الإنسانِ ، فإذا انتفى وجودُ اللهِ انتفى وجودُ الإنسانِ وإنسانيتِه ، فإما أن يكونَ الإنسانُ لا إنسانًا (ملحدًا)، أو إنسانًا (مؤمنًا).

فالأخلاقُ يكمنُ في داخلها قيمةُ التكليفِ الإلهيِّ، فهي -كما اتفقنا- غيرُ مُربحةٍ ماديًا لكنها تستمدُّ قيمتَها من عالَمٍ آخر .. فالسلوكُ الأخلاقيُّ والتضحيةُ والمُثُل العليا إما أنها لا معنىً لها وإما أن لها معنىً مرتبطا بوجود الله .

فإذا صحَّ أننا نرتفعُ من خلالِ المعاناةِ، ونَنحطُّ بالاستغراقِ في المُتعِ، فذلك لأننا نختلفُ عن الحيوانات البهيمية.. فإننا نشعرُ فطريًا بقيمةِ الأخلاقِ داخلَ كلِّ فردٍ منّا رغم اعترافِنا أنها غيرُ مُجدية ماديًا.

وأعودُ لأقولَ: إنَّ الأخلاقَ تعني في صورتِها النهائيةِ الرائقة: الحياةَ ضدَّ الطبيعةِ الماديّة .. ضدَّ المادةِ .. ضدَّ العقلِ الماديِّ، وهذا خلاصةُ ما ذكرناه آنفا .

والأخلاقُ كالإنسانِ تمامًا لدى الماديين! فهي لا عقلانيةٌ، لا طبيعيةٌ، أو قُل فوق الطبيعة.. والأخلاقُ كمبدإٍ لا يُمكنُ وجودُها بغير دِين .. أما الأخلاقُ كممارسةٍ فهذا شأنٌ آخر .. وعندما يُمارسُ الملحدُ الأخلاقَ فهذا شيءٌ جميلٌ، لكنَّ هذا لا يَتسقُ في شيءٍ مع مذهبِه الماديِّ! بل فيه اعترافٌ ضمنيٌّ بأن الإنسانَ محتاجٌ ضرورةً للتكليفِ الإلهي غير مستغنٍ عنه.

والأخلاقُ والدينُ يرتبطانِ معًا بالعالَمِ الآخرِ الأسمى، ولا يوجدْ ما يربطُهما بعالم الماديين .. إذ الأخلاقُ في صيغتِها الأولى التي وهبها اللهُ لآدمَ هي دِينٌ تَحوَّلَ إلى قواعدَ للسلوك .. فاللهُ وحدَه هو الذي وهبنا رأسَ المالِ الأخلاقيِّ الذي آتاه الإنسانَ الأول .

والمُحرماتُ كالأخلاقِ تمامًا لدى الماديين، هي الأُخرى بلا معنى، ولا عقلانيةٌ..

لكنَّ الإنسانَ لا يشعرُ أنه إنسانٌ إلا إذا سَمَتْ روحه بالأخلاق، وترفعت عن المحرمات، فإذا كان الإنسانُ هو ابنُ الطبيعةِ كما يقولون فكيف تَسنَّى له أن يبدأَ في معارضةِ الطبيعةِ ؟!

إن معنى حياةِ الإنسانِ لا يتحققُ إلا بإنكارِ الحيوانِ الذي بداخلِه..

فلا معنى للإنسانِ والإنسانية إلا في الإيمان بوجودِ الله .. وإذا كان الإنسانُ موجودًا فإن اللهَ موجودٌ، وإذا كانت الإنسانية موجودة فإن الدين موجود.

والذي خلقنا سبحانه وتعالى له الخلقُ والأمرُ معًا وليس الخلقُ فقط ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف:٥٤]، ويبقى أن نستجيبَ لداعي الحق في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٦].

المراجع

١- الإسلام بين الشرق والغرب،علي عزت بيجوفيتش، مؤسسة بافاريا.

٢- رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية، عمرو شريف، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٣- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة فياض.

نقض مذهب السفسطة

بقلم د أبو مريم

لقد أَنكر المسفسطةُ وجود اليقين وأنكروا أصلَ العلوم على أربعة أقوال، ذكرها **إمام الحرمين** في "البرهان" **وابن تيمية** في "المسودة"، فطائفةٌ أنكرت أصل العلوم مطلقا، وقد عبَّرَ عنهم **إمامُ الحرمين** بعبارة دقيقة تشير إلى تهافت مذهبهم: ﴿ **وقالت: نعلم أن لا علم أصلا** ﴾ فلفظة (نعلم) التي عبروا بها تتناقض مع نفي العلم؛ فكلامُهم متناقض لا يستحقُّ النظرَ، ولا يستوجبون ردا ولا التفاتا.

وطائفةٌ ثانيةٌ قالت: ﴿ **لم يثبت عندنا علمٌ بمعلومٍ، فلا نعلم انتفاءَ العلوم** ﴾، فهؤلاء توقفوا في إثبات أصل العلوم بحجة أنهم لم يثبت عندهم علم أصلا. وتلك حجةٌ داحضة؛ فنفيهم ثبوتَ العلم لديهم يعني أنَّهم يعرفون ثبوته، وإلا فمن لا يعرف كيف يثبُتُ الشيءُ فلا يستطيع أن يعرف إن كان هذا الشيءُ قد ثبَت في تلك الحالة أو لا، وإذا كان العلم بكيفية ثبوت الشيء ثابت لديهم فهذا يعني أنه قد تحقق لهم علم ما، وهو مبطل لقولهم.

وطائفةٌ ثالثةٌ قالت: ﴿ **لا ننكر العلومَ، لكنْ ليس لنا من القوة البشرية الاحتواءُ عليها، لأنَّ الذين يحاولونها لا يستقرون على حال** ﴾ وهذا فضلا عن كونه إمَّعيةً لا تليقُ ببحث علمي فهو أيضا يتضمن دعوى، ودعوًى كاذبةٌ أيضا؛ فلو أنَّ كلَّ باحثٍ علميٍّ في مجال ما احتج بكون الناس قد حاولت في ذلك الأمر ولم تفلحْ على أنه ممتنعٌ مطلقا لسقطَ البحثُ العلمي، ولما اختَرع أحدٌ شيئا ولا ابتَكر، ولتوقفت الحضارة عند ما قبلَ العصور الحَجرية. ثم مَنْ قال إنَّ الناس لم يستقروا على علم من العلوم أو أن العلوم لا استقرار فيها أصلا؟!

بل على العكس من ذلك تماما، وإنما قد يتحقق عدمُ الاستقرارِ فيما يتعلقُ بالظنيات، وحتى هذه لا يمنع اختلافُ الناس فيها من البحث العلميِّ وطلبِ اليقين.

وطائفةٌ رابعةٌ قالت: ﴿ **بأن العقودَ المصمَّمَةَ كلَّها علومٌ، فمعتقِد قدمِ العالمِ على علمِه، ومعتقِد حدوثِ العالمِ على علمِه، ومثَّلوا ذلك باختلافِ أحوالِ ذوي الحواس: فالصحيحُ يُدرِكُ الماءَ الفراتَ عذبًا، ويُدرِكُه من هاجتْ عليه المِرَّةُ الصفراءُ مُرًّا** ﴾ وهذا يعني أنهم يدعون نسبيةَ الحقائقِ، وأنَّ الشخصَ هو مقياسُ الحقيقةِ، وهو المذهبُ الذي كان يحارِبُه **سقراط**.

وقال **ابنُ قدامة** رادًا على من نُقلَ عنه ما قد يُوهمُ هذا القولَ من علماء المسلمين: ﴿ **وقول العنبري: كلُّ مجتهدٍ مصيب. إن أراد أنَّ ما اعتقدَه فهو على ما اعتقدَه، فمحال؛ إذ**

كيف يكون قِدَمُ العالم وحدوثُه حقًا، وتصديقُ الرسولِ وتكذيبُه، ووجودُ الشيءِ ونفيُه.. وهذه أمورٌ ذاتيةٌ لا تتبعُ الاعتقادَ، بل الاعتقادُ يتْبَعُها. فهذا شرٌ من مذهب الجاحظ، بل شرٌ من مذهبِ السوفسطائية؛ فإنهم نفَوا حقائقَ الأشياء، وهذا أثبتَها وجعلها تابعةً للمعتقدات.. قال بعضُ أهل العلم: هذا المذهب أوَّلُه سفسطةٌ، وآخرُه زندقةٌ؛ لأنَّه في الابتداءِ يجعلُ الشيءَ ونقيضَه حقا، وبالآخرة يُخيِّرُ المجتهدين بين النقيضين عند تعارض الدليلين، ويختارُ من المذاهب ما يروقُ لِهواه.

فهذا المذهبُ المفضي إلى نفي الحقائقِ بالكُلِيَّةِ دعوةٌ صريحةٌ للفوضى، وانعدامِ القانونِ والنظامِ والأخلاقِ بصورة عامة، وهو مما يُشِيعُه المغرضون والملاحدةُ في مختلفِ العصور.

وقد ظهرتْ السفسطة في العصر الحديث في صورةِ مذاهبِ المنفعةِ، كالوضعية والبرجماتية، و ظهرت لدى العلمانيين أدعياء التسامح.

فأما أصحاب المذاهب النفعية الحديثة فقد فسروا المنفعة بمعناها الضيق، وليس بالمعنى المطلق الذى يتمثل في تحقيق قيمة الخير التي لا تتعارض مع قيمة الحق؛ فرجعوا مرة أخرى لتقرير فكرةِ أن الإنسانَ هو مقياسُ جميعِ الأشياءِ،

وبنوا على ذلك فكرهم ومذهبهم الفلسفيَّ برُمَّته:

يقول (**ويليم جيمس**): **إنَّ الفكرةَ الواحدةَ تكونُ صادقةً في وقتٍ ما حين تحقق نفعا، وتكون خطأ في وقت آخر حينما تفشل في تحقيق ذلك، أو تكونُ صحيحةً بالنسبة لشخص ما، وخاطئةً بالنسبة لشخص آخر**!.

ومسايرةُ هذا الاتجاه تقتضي أن تكون الفاشيَّةُ حقًا وباطلًا، والأرضُ مسطحةً وأسطوانيةً وكرويةً!..

ويقول (**أوجست كونت**): **إنَّ الأفكارَ تكونُ صادقةً إذا أنتجتْ نتائجَ مُرْضية**!

بينما يرى العقلاءُ أنَّ فائدةَ العقل هي التوصل إلى الحقائق بغض النظر عن كونها مُرْضية أو غيرَ مُرْضية، محققةً لرغبات وملذات شخص صاحبِها أو غيرَ محققة، لكنَّ الفلسفة المادية قد عكست القاعدة فبدلا من أن تقول: إنَّ هذه المعرفة ترضيني لأنها حقيقة، أصبحت تُرَدِّدُ: (**هذه المعرفة حقيقة لأنها ترضيني**)!.

وهذه الدعاوَى لا أساسَ لها، فلو فُرِضَ تعارضُ الحقيقة مع المنفعة بالمعنى الشائع، فتلك المنفعةُ هي النسبيةُ، وهى التي تختلف من شخص لآخر وليست الحقيقةُ.

أما دعاةُ التسامحِ من العلمانيين فيقولون: إنَّ اعتمادَ الشكِّ في التفكير الفلسفي، والأخذَ بنسبية الحقيقة هو التسامحُ بعينِه!

ويرى (**جون استيوارت مل**) أنَّ التسامح يقتضى اتِّباعَ مذهبِ نسبيةِ الحقائقِ وأنه يمتنعُ مع التسامح الاعتقادُ في حقيقة مطلقة!!

والحقيقةُ أنه ليس من التسامح ولا من أخلاقيات البحث العلمي ولا من متطلبات الوفاق الاجتماعي أنْ يشكَ الإنسانُ في معتقدِه وإيمانِه، فهذا هو التناقض بعينه؛ فعبارة: (**قولي صواب يحتمل الخطأ وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب**) لا تنطبق إلا على الظنيات فقط، كالاجتهادات الفقهية، أما ما يتطلبُ اليقينَ والقطعَ كالعقيدةِ وأصلِ الدين فإن الأخذَ بهذا المبدإِ فيه -أقلُّ ما يقال عنه أنَّه- قولٌ وقع صاحبُه في التناقض.

بل التسامح أنْ تعتقدَ ويعتقدَ غيرُك، ويُحسنُ كلٌ منكما إلى الآخر، ولا يعتدى على حريته في الاعتقاد، وليس شرطا في التسامح مع أصحاب العقائد أن تَقبلَ عقائدَهم وتعتقدَها!! فإن لم تستطع الجمع بينها وبين عقيدتك تلجأ إلى التسوية والتشكيك في الجميع!! وبعد ذلك إما أن تَقْصُرَ هذا المبدأ على العقائد الدينية فقط فتكون محصلته تعصبٌ للإلحاد ليس إلا!! أو تعممَ هذا المبدأ ليشمل جميع القوانين والحقائق العلمية!! كلا، وهذا ليس معقولا! فضلا عنْ أنْ يكونَ موقفًا إصلاحيًا يصدرُ عن مفكرين يوصفون بأنَّهم مناطقةٌ وأصحابُ منهج علميٍّ يحترمون عقولَهم وعقولَ النَّاس.

إنَّ نسبيةَ الحقيقةِ تعنى نفي الحقيقةِ بالكلية؛ فالحقُّ هو الثابتُ، وقولنا: "**حقٌ نسبيٌّ**" كقولنا (**وجودٌ عدميٌّ**) أو (**عدمٌ وجوديٌّ**)، يقول **الكَفَوِيُّ** في "الكُلِّيَّات": ﴿**الحقيقةُ: هي إمَّا فعيلٌ بمعنى فاعل، من حَقَّ الشيءُ: إذا ثبت، ومنه {الحاقَّة} لأنها ثابتة كائنة لا محالة. وإمَّا بمعنى مفعول، من حققت الشيءَ: إذا أثبته. فيكون معناها: الثابتة، والمثبَتة**﴾.

ونفيُ الحقيقةِ بالكلية مستحيلٌ عقلا؛ لأنَّه ينفي ضمنَ ما ينفيه حقيقتَه هو، فهو باطلٌ على كل حال، ولا يمكن التعبيرُ عن هذا المعنى أصلا بطريقةٍ لا تناقضَ فيها، وليس للقول بنسبيةِ الحقائقِ سوى تفسيران لا ثالث لهما:

الأول: أنَّه قولٌ متناقضٌ لا مغزى له ولا مضمونٌ.

والثاني: أنَّهم لا يقصِدون بـ(**الحقيقة**) المعنى المتعارفَ عليه لكلمة حقيقةٍ، بل يقصِدون معنًى آخرَ في أذهانِهم.

وفي كِلتا الحالتين فاستعمالُ عبارةِ (**نسبيةِ الحقائقِ**) من كُبرى المغالطات.

لكنْ ما الذي يدفعُ مناطقةً وفلاسفةً على هذا المستوى لاستعمال المغالطات السافرةِ؟

الجواب: أن الذي دفعهم لذلك هو محاولةُ تجميلِ مذهبِ السفسطةِ، والذي دفعهم لمحاولة تجميل هذا المذهب بالعبارات هو حرصُهم على تطبيقه، والذي دفعهم للحرص على تطبيقه -رغم علمِهم القاطعِ ببطلانِه وأنَّه عينُ البطلانِ- هو أنَّه الملاذُ الأخيرُ لمواجهةِ الحقيقة، والذي دفعهم لمواجهةِ الحقيقةِ هو نوازعُ النفسِ الأمَّارةِ التي تأبى الحقَّ، وتستمرِئُ الباطلَ حتى تُسَوِّلَ لها نفسُها الدفاعَ عنه في صورةٍ من يدافعُ عن الحق، وليس لذلك علاقةٌ لا بالمنطقِ ولا بالفلسفةِ، فهي مجرَّدُ نزعاتٍ نفسيةٍ، ورغباتٍ غيرِ سويَّةٍ لدى أصحابِها تُعبِّرُ عن نفسِها علَّها تجدُ صدًى وتعاطفًا لدى ضِعافِ العقولِ أو منْ له الميولُ والنزعاتُ نفسُها.

وقد تكون هناك دوافعُ أخرى لدى بعض الناس، كالوقوعِ في الخلطِ بين (**نسبيةِ المعرفةِ**) و(**نسبيةِ الحقيقةِ**)، ومعلومٌ أنَّ نسبيةَ المعرفةِ إنَّما تتعلقُ بإدراكِنا للحقائقِ وليس للحق في ذاتِه.

وقد يكونُ ذلك نتيجةً للاضطراباتِ التي خلَّفها الصراعُ بين سلطةِ الكنيسةِ -التي تُمَثِّلُ في أذهانِ الغربيِّين الجانبَ الروحيَّ- وبين العلمِ.

وقد اختلفَ العلماءُ في منهجِ الردِّ على المسفسطة كما يقولُ **إمامُ الحرمين**: ﴿**فذهبَ الأكثرونَ إلى الانْكفافِ عنهم؛ فإنَّ غايةَ المُنَاظِرِ اضطرارُ خصمِه إلى الضروريات، فإذا كانَ مذهبُهم جحدُها والتمادِي فيها فكيف الانتفاعُ بمكالمتِهم؟! ومِن النُظَّار مَن كلَّمهم بالتقريبات وضربِ الأمثال وإلزامِ التناقضِ، فقال للأولِينَ: أنكرتم العلومَ وادَّعيتم العلمَ بانتفائِها كلِّها، وهذا تناقضٌ لا يُنكِره عاقلٌ. والذي أراه أنَّه لا يُتَصورُ أنْ يجتمعَ على عقدِهم فِرقةٌ من العقلاءِ من غيرِ فرضِ تواطؤٍ على الكذب**﴾.

أمَّا إن كان المقصودُ هو التشهيرُ بهذا المذهبِ وتحذيرُ الناسِ منه، فليس من الضروريّ دائما أنْ نقومَ بتحليلِه ومعرفةِ أصولِه والردِّ عليها، بل هناك طرقٌ أخرى منها: استنباطُ النتائجِ الباطلةِ منه، والتي لا مجالَ لتصحيحِها من قِبَلِ صاحبِها كما هي طريقة أفلاطون في المحاورات، وكما هو واضحٌ فالسفسطةُ تُؤدِّي إلى شُيوعِ الفوضى، وتُبَرِّرُ الخروجَ على كلِّ النُظُمِ والقوانين، ولا يوجدُ ما هو أفسدُ من ذلك، ولا أقبحُ مذهبا منه في عُرفِ الناسِ جميعًا.

وهناك طريقةٌ أخرى تقومُ على تتبُّعِ تاريخِ هذا المذهبِ والمفاسدِ التي ترتبتْ عليه في مختلَفِ العصورِ، وأنَّه كان المذهبَ المقابلَ للعقل، وأنَّ كلَّ مَن اعتَمدَ عليه في الدفاعِ عن فكرٍ أو هدفٍ سياسي أو ديني لم يلجأ إليه إلا بعد ظهورِ عجزِه وانكشافِ فسادِ معتقدِه.

عندما تغيبُ السُّنة !

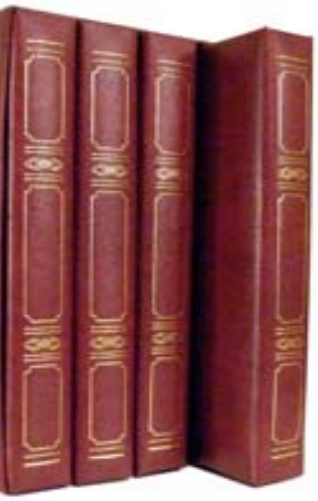

بقلم أبي جهاد الأنصاري
مدير عام شبكة السنة

الحمد لله الذي بعث رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهرَه على الدينِ كلِّه ولو كرهَ الكافرون،
وصلاةً وسلاماً على من أرسله اللهُ رحمةً للعالمين،
وعلى آله وصحبِه الذين بذلوا أرواحَهم وأموالَهم في نُصرةِ وتبليغِ هذا الدين.

وبعد:

إن الإسلامَ كِيانٌ، ولكلِّ كِيانٍ منهجٌ، وكِيانُ الإسلامِ هو الجماعةُ، ومنهجُ الجماعةِ هو السُنَّةُ، وهذا ما يُعبَّرُ عنه بتسمية: (**أهلِ السنةِ والجماعة**).

وعندما أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ شرْعَ الإسلامِ فإنَّه أنزلَه ليكونَ واقعاً على الأرضِ، وليس مجردَ سطورٍ مخطوطة، أو فصولٍ مجموعةٍ في كتاب. وهذا يقتضي أن يكونَ هناك نُسخةٌ بشريةٌ (عمليةٌ) من هذا التشريعِ النظريِّ المكتوب، فأمَّا التشريعُ المكتوبُ فهو القرآنُ الكريم، وأمَّا التطبيقُ العمليُّ للقرآنِ فهو سُنَّةُ النبي ﷺ.

والسنةُ محورُ اهتمامِها هو النبيُّ ﷺ بأقوالِه وأفعالِه وتقريراتِه وصفاتِه وأخلاقِه.

والسنةُ النبويةُ وحيٌ من اللهِ كان يَنزلُ به جبريلُ عليه السلام على النبي ﷺ كما كان يَنزلُ بالقرآنِ الكريم، يقول تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾
[النجم:١-٥]

فتَأملْ كلمةَ ﴿يَنطِقُ﴾ والتأكيدُ بعدها بأنه ﴿وَحْيٌ﴾!

وأمرَنا ربُّنا سبحانه وتعالى أن نأتَمِرَ بأوامرِ النبي ﷺ وننتهيَ عما نهى عنه فقال تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾
[الحشر:٧]

وأزالَ وصفَ الإيمانِ عن الذين يرفضون حُكمَ النبي ﷺ فقال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
[النساء:٦٥]

فالتسليمُ للنبي ﷺ في كل ما يأمرُ به أو ينهى عنه شرطٌ من شروط الإيمانِ بالله، ولِمَ لا؟! أليس النبيُّ ﷺ هو الذي أخبرنا عن الله؟

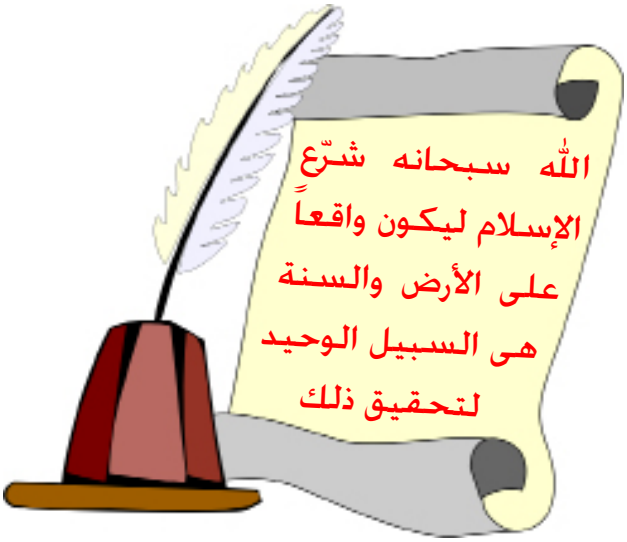

ووصَفَ أن طاعةَ الرسولِ بأنها طاعةٌ لله فقال تعالى:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

[النساء:٨٠]

لاحِظْ استخدامَ الفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿يُطِعِ﴾ الذي يفيدُ الاستمرار.

وهَددَ وتَوعدَ كلَّ من يخالفُ النبي ﷺ بسوءِ المصيرِ في جهنم:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

[النساء:١١٥]

وبيّنَ دَورَ السنةِ بأنها المُبَينةُ للقرآنِ الكريمِ فقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[النحل:٤٤]

وكلُّ هذه الآياتِ الكريمةِ أدلةٌ قطعيةٌ على حُجيةِ السنةِ النبويةِ في التشريعِ الإسلامي، ولا يمكنُ أن تنفصلَ السنةُ عن القرآن، فالسنةُ هي المُبيِّنةُ لما أجمَلهُ القرآن، وهي المخصِّصةُ لما عمَّمهُ القرآن، وهي المقيِّدةُ لما أطلقَه القرآن. والسنةُ النبويةُ هي أفضلُ تفسيرٍ للقرآنِ الكريمِ بعد تفسيرِ القرآنِ بالقرآن. وبلُغةِ أهلِ القانونِ نستطيعُ أن نصفَ السنةَ بأنها القانونُ الذي يوَضحُ ويُفسرُ ويُفصلُ الدستورَ الذي هو عندنا القرآنُ الكريم. فهل رأى أحدٌ دستوراً بلا قانون؟! أو قانوناً بلا دستور؟!

ولا يُتصورُ عند أصحابِ العقولِ السليمةِ أنْ ينفصلَ التطبيقُ العمليُّ عن الإطارِ النظريِّ لأي منهجٍ من المناهج، ولا شك أنَّ فصلَ التطبيقِ العمليِّ عن المنهجِ النظريِّ سيقعُ ضررُه على ذلكَ الإطارِ النظريِّ نفسِه، إذ سيكونُ عرضةً للتأويلاتِ الفاسدةِ، والأهواءِ الساقطة.

وهنا سوف أُبينُ بعض المثالبِ والنقائصِ التي لا بُد أننا سنقعُ فيها إذا ما نَحيَّنا السنةَ وأخَّرناها عن القرآنِ الكريم، وإذا ما عطَّلناها وهمَّشناها وأزلنا عنها صفةَ الوحي.

فماذا سيحدثُ عندما تغيبُ السنة؟

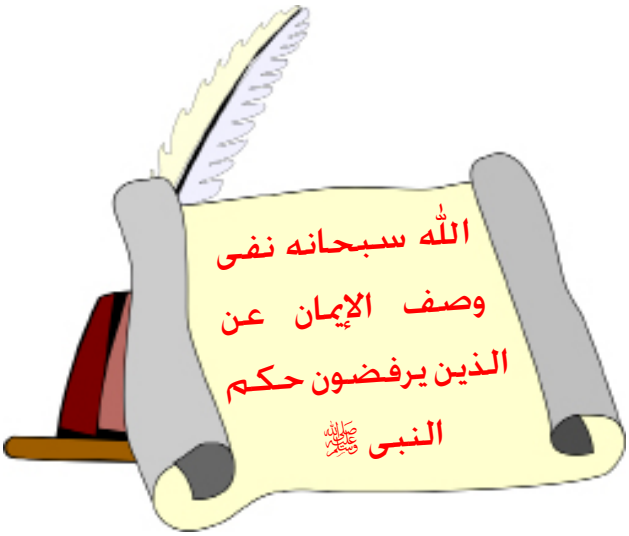

أولاً: الجهلُ بمقاصدِ القرآنِ الكريم

أخرج الإمامانِ البخاريُّ (٤٧٧٦) ومسلمٌ (١٢٤)

في صحيحَيهما عن عبدِ الله بن مسعودٍ ﷺ قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، شقَّ ذلك على أصحابِ رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يَلْبِس إيمانَه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ :

﴿ÜÐ ÜIIƒRh ΣŏI NJLg
:LGJGdZI! ÿĂp Ť !ę ÿGžĘk
﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟.

الشاهدُ من هذا الحديثِ أن الصحابةَ وهم أعلمُ المسلمينَ بعدَ النبي ﷺ وهم أعلمُ الأُمةِ بلغةِ العربِ، لم يتبين لهم مَقْصدَ القرآنِ الكريم في الآية الأولى وظنوا – خطأً – أنهم ليسوا من الآمنينَ وليسوا من المهتدين، بل نفوا أن يكون أحدٌ لم تَطَلهُ الآيةُ، وهنا لجأوا إلى رسولِ الله ﷺ ليُبينَ لهمُ المقصدَ الحقيقيَّ للقرآنِ من كلمةِ ﴿ظُلم﴾ وأنه ليس الذي فهموه ولكن المقصودَ به هنا هو ما فصَّله القرآنُ في موضعٍ آخرَ ألا وهو الشركُ بالله.

لولا هذا الحديثُ الشريفُ، ولولا ربطُ النبيِّ ﷺ هذه الآيةَ بآيةٍ أخرى، لكانت الآيةُ الأولى نَصًّا صريحاً على نفيَ الأمنِ والهدايةِ عن كل مسلمٍ على وجهِ الأرض، فما من مسلمٍ إلا وقد لَبِسَ إيمانَه بظلم ما. ومن هذا المثالِ الموجزِ المختصرِ يتبينُ لنا أنه بدونِ السنةِ سوف نَضلُّ ونجهلُ المقاصدَ الحقيقيةَ للقرآنِ الكريم.

ثانياً: الجهلُ بأحكامِ العباداتِ وصفاتِها وهيئاتِها

يزخرُ القرآنُ الكريمُ بالكثيرِ من الآياتِ التي تأمرُ المسلمينَ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وصومِ رمضانَ وحجِّ البيتِ، ولم يُبَيِّنْ القرآنُ الكريمُ كيفيةَ أداءِ هذه العباداتِ على وجهِ التفصيل، بل تركَ هذا للسنةِ النبويةِ لتُوضحَ كلَّ هذا، وليقفَ النبيُّ ﷺ بين يديْ أصحابِه ليشاهدوه، وليقولَ وائلُ بنُ حجرٍ: "لأشهدنَّ صلاةَ النبي ﷺ" تنفيذاً لقول النبي ﷺ:

﴿ ŏIJŤĤ ŏLjĂdžkŏDƧ GdŽ‡ ƒĂIJŤ ﴾

فوصَفَ كيفيةَ قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وجلوسِ النبي ﷺ ونقلَ للأُمةِ ما شاهدَ ليقتدوا بالنبي ﷺ في أداءِ الصلاة.

عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبزى قال: كنا عند عمرَ – يقصدُ ابنَ الخطابِ - فأتاه رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين إنا نمكثُ الشهرَ والشهرينِ لا نجدُ الماء. فقال عمرُ: أمَّا أنا فلمْ أكنْ لأُصلي حتى أجدَ الماءَ فقال عمارٌ –هو ابنُ ياسر -: يا أميرَ المؤمنين تذكرُ حيث كنا بمكانِ كذا ونحن نرعى الإبلَ فتعلمْ أنّا أجنبْنا؟ قال: نعم، قال: فإني تمرّغتُ في الترابِ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فحدثتُه فضحك وقال:

﴿IIŏƵG‡ ŶŏƵI!ƒ ßŏžŤ!ƒ LJG‡﴾،
DžĂ ŮƲƧÜƒ ĶĴŏs‡h ŶƧuƲĂ
GdŽnjh Ø'ĘdŽ DžĂ GdŽąjŏ5 qĮsLj
.NJŏŽƒƧR ŮƲžhĂ NJąjnĂ

قال – أي عمر -: اتقِ اللهَ يا عمار، قال: يا أميرَ المؤمنينَ

إن شئتَ لم أَذكرْهُ ما عشتُ أو ما حييت، قال: كلا واللهِ ولكن نُوَليك من ذلك ما تَوليتَ.

[أخرجه الإمامُ أحمد في مسنده (٤/ ٣١٩) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٨١) وابن حبانَ في صحيحه (٤/ ١٣٢)]

الشاهدُ أن السنةَ النبويةَ هي التي بَينتْ الحكمَ التعبديَّ الذي لم يعلمه صحابيانِ جليلانِ يقرآن القرآنَ أكثرَ مما نقرأُه نحن، ويفهمانِ القرآنَ أفضلَ مما نفهمُه نحن. فقِسْ على هذا الشاهدِ الكثيرَ والكثيرَ من أحكامِ القرآنِ التي سوف تختلفُ فيها الأقوالُ لو لم تأتِ السنةُ ببيانِها. فلولا السنةُ لقطعنا يدَ السارقِ ولو سَرق قرشاً أو فلساً واحداً، ولاختلفنا في موضعِ القطعِ أيَّما اختلاف. فالنبيُّ ﷺ يقول:

﴿ßzÏ3 ¨bÎ) ©!$# ¼çms9 Ïôgt/ ¼çms9 ÏM»t6Íh‹¨Z9$#﴾

[أخرجه البخاري عن عائشة (برقم ٦٧٨٩، ٦٧٩٠، ٦٧٩١)].

فتأملْ تحديدَ النبي ﷺ حدَّ القطعِ بأنه لا يكونُ إلا عندما يبلغُ قيمةُ المسروقِ رُبعَ دينار، ولولا هذا لقَطعَ المنكرونَ للسنةِ يدَ السارقِ الذي يسرقُ قرشاً واحداً، وتأمل تحديدَ النبيِّ ﷺ موضعَ القطعِ بأنه من الكفِّ، ولولاه لقَطعَ منكرو السنةِ يدَ السارقِ من الكتف، ويكفي هذا المثالُ لتقرأَ قولَ اللهِ تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

[الحج:١٠٧]

بفهمٍ جديدٍ في إطارِ السنة.

ثالثاً: ادعاءُ التعارضِ في القرآنِ الكريم

لا شكَّ أن ما أقولُه هنا عن خطرِ غيابِ السنةِ سوف يُثيرُ حفيظةَ الكثيرين، واستغرابَ الأكثرِ ولكن هذه هي الحقيقةُ فلا أزعُمها، ولعل سؤالاتِ نافعِ بنِ الأزرقِ (توفي ٦٥ هـ) للصحابي الجليلِ عبدِ الله بنِ عباس رضي الله عنهما خيرُ دليلٍ على ما أقول.

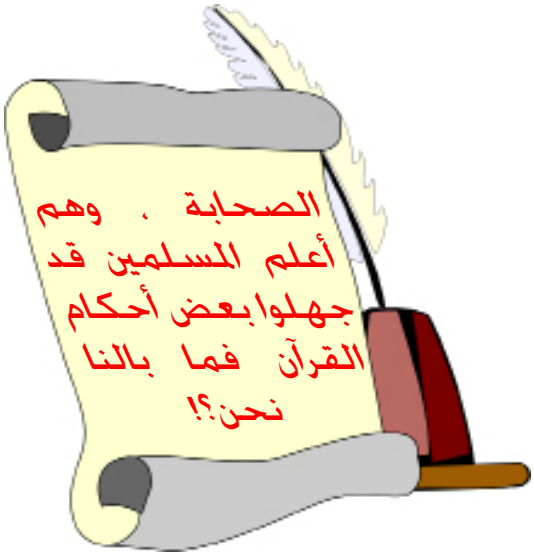

ونافعُ بنُ الأزرقِ هذا هو أحدُ رؤوسِ الخوارجِ ومؤسسٌ لفرقةِ الأزارقة، وكان – قبل أن يَرفع رايةَ الخروجِ ويقعَ في الفتنة - قد وجَّه العديدَ من الأسئلةِ لعبدِ الله بنِ عباسٍ لبعضِ الأمورِ التي تختلفُ عليه في القرآنِ الكريم، فعندما يقرأُ أحدٌ أسئلةَ نافعٍ قد يظن بُرهةً أن هناك تناقضاتٍ عظيمةً وتعارضاتٍ في القرآنِ الكريم، ولكن تأتي إجاباتُ حَبرِ الأُمةِ وكأنها النورُ لتَجلِيَ عن الذهنِ ما وقع فيه من لُبسٍ، ولتُبيِّنَ قيمةَ السنةِ في دفْعِ الشبهاتِ عن القرآنِ الكريم.

وأترُككم مع هذا الحديثِ الذي رواه البخاريُّ رحمه الله عند تفسيرِه لسورةِ السجدةِ في صحيحِه:

وَقَالَ الْمِنْهَالُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ – قال ابن حجر أنه نافع ابن الأزرق - لابْنِ عَبَّاسٍ إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَقَالَ: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿دَحَاهَا﴾ فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿طَائِعِينَ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ. وَقَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

رَحِيمًا﴾، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟

فَقَالَ – أي ابن عباس -: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الْآخِرَةِ ﴿أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولُ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ، فَخُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا وَعِنْدَهُ ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةَ.

وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ، وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿دَحَاهَا﴾.

وَقَوْلُهُ : ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَجُعِلَتْ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتْ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ أَيْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ فَلَا يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ.

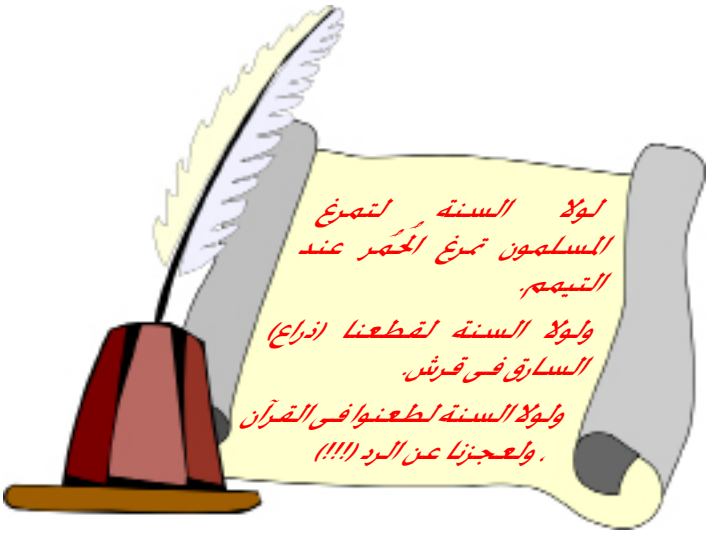

إن سؤالاتِ نافعِ بنِ الأزرقِ وإجابةَ ابنِ عباسٍ عليها، لتفقأُ عيونَ منكري السنةِ الذين يريدون أن يَفصلوا بين القرآنِ والسنة، ونقولُ لهم انظروا إلى هذه الآياتِ –المتعارضةِ ظاهرياً – التي ألقاها نافعٌ على حَبرِ الأُمة، وماذا لو لم يكن هناك مثلُ ابنِ عباسٍ يجيبُ بما تعلَّمه مِن النبيِّ ﷺ ومِن أصحابِه فهل كان لهم من مَخرجٍ في ردِّ هذا التعارضِ في القرآنِ إلا بالسنة النبوية؟!

إن الذي أريدُ أن أَخلُصَ إليه في نهايةِ المقالِ هذا هو أن أَصِلَ إلى نهايةٍ محددةٍ ونتيجةٍ واحدةٍ ألا وهي أنَّ في غيابِ السنةِ غيابًا للمعنى الحقيقيِّ للقرآن.

وصدقَ أبو عبدِ الله البربهاريُّ عندما افتتح كتابَه " شَرْحُ السنة" قائلاً:

السُنَّة هي الإسلامُ
والإسلامُ هو السُنَّة

اللهم انصر اهل غزة واحفظهم

العدد الثاني

الحوار عن المذاهب الفكرية

العقيدة والتوحيد

الحوار عن الإسلام

السنة وعلومها

كتاب ومقالات

منتدى التوحيد

جميع الحقوق محفوظة لموقع منتدى التوحيد. لتواصلكم واقتراحاتكم زوروا منتدانا

WWW.ELTWHED.COM